التربية الإيمانية

إذا صح الإيمان

الطبعة الثانية
مزيدة ومصححة ومخرجة

إعداد
عبد الله بن فهد السلوم

سلسلة التربية الإيمانية

إذا صح الإيمـــــان

الطبعة الثانية

مزيدة ومصححة ومخرجة

إعـــداد

عبد الله بن فهد السلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــــة

الحمد لله المتفرد بالجلال والكمال، والمتنزه عن الشركاء والأنداد والأمثال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، الذي حقق التوحيد، وتوكل على ربه وعاش حقائق الإيمان في قلبه، وفاضت على جوارحه، فتعامل بها مع ربه، وصدق مع الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، وبعد:

فهذه كلمات عن ثمرات الإيمان وآثارها على النفس والمجتمع وما يترتب على زيادة الإيمان ونقصانه في نفوس المؤمنين في حياتهم الخاصة وحياتهم العامة مع سائر الناس.

والأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، وآثرت الحديث عن هذا الموضوع لما نشاهده في حياتنا من مظاهر التفريط والضعف رغم أداء الصلاة والزكاة والصيام والحج، ورغم التقرب إلى الله بالنوافل، ووجود الحماس لهذا الدين، والرغبة في الخير.

فنحن بحاجة ماسة إلى مراجعة كبيرة، وحديث عميق طويل عن أعمال القلوب، وتجديد الإيمان، لأن العبادات عند الكثير منا أصبحت لا تعمل عملها

ⓒ دار المسلم للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السلوم ، عبد الله بن فهد
إذا صح الإيمان – الرياض
١٤٤ص ، ١٧×٢٤سم – (سلسلة التربية الإيمانية ، ١)
ردمك : ٢- ٣٢- ٦٣٢ – ٩٩٦٠
١- الإيمان (الإسلام) أ – العنوان
ديوي ٢٥٢.٣ ١٧/٣٠١٤

رقم الإيداع : ١٧/٣٠١٤
ردمك : ٢- ٣٢- ٦٣٢- ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
الطبعة الثانية
١٤٢٣هـ

في تطهير القلوب وتزكية النفوس ، فلقد غلبت عليها الشكلية والمظهر ، فلم تؤثر في سلوك ، أو تردع عن هوى ، أو تصد عن معصية ، أو تذكر بخوف الله ورجائه .

والداء الخطير في باب ضعف الإيمان هو غلبة حظ النفس التي تريد المكانة والرفعة ، وتحقيق مرادها في الثناء ، وطلب المنزلة ، وعدم الاعتراف بالخطأ ، والتي تريد أيضاً الانشغال بالآخرين دون نفسها ، وتريد منهم الصبر والاحتساب، وسائر الخصال الحميدة ، ولكنها لا تريد ذلك من نفسها واقعاً عملياً . ومظاهر ضعف الإيمان كثيرة وهي بازدياد بسبب الغفلة ونسيان المحاسبة والبعد عن تدبر الكتاب والسنة .

إن جيل الصحوة المباركة من شباب ومربين ، ودعاة وعلماء مدعوون جميعاً إلى التركيز على أصول الإيمان ، وإثراء البحث فيها وتطبيقها على واقع الحياة والنفس ، لتكون عقائد علمية وعملية ، تحتل في القلوب المكانة العظمى ، لتكون المعرفة بالله وبما يستحقه من التعظيم والإجلال معرفة حقيقة ، ولتتعبد القلوب لله بمقتضى أسمائه وصفاته وتستشعرها ، وكذلك الإيمان بالملائكة الذين هم خلق من خلق الله خلقهم لعبادته قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] مع اختلافات مهماتهم ، فمنهم الحفظة لبني آدم ، وكتبة الحسنات والسيئات ومنهم

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٠ .

خازن الجنة ، وخازن النار ، وأشرفهم جبريل عليه السلام صاحب الوحي الذي به حياة القلوب ، ومنهم إسرافيل صاحب النفخ في الصور ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر واستحضار هوله العظيم ، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[1] يوم الفضائح على المجرمين والمتجبرين يوم يقول فيه كل واحد من الناس : نفسي نفسي إلا محمداً ﷺ الشافع عند ربه . وكذلك الإيمان بالكتب ومنها القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، وكذلك الإيمان بالقدر خير وشره وحلوه ومرّه ، بحيث يعلم العبد ويتيقن أن كل شيء حدث أو يحدث أو سوف يحدث في هذا الكون بقضاء الله وقدره . لا يخرج منه شيء عن تقدير الله الكوني القدري .

والحاصل أننا إذا عشنا العقيدة في قلوبنا وتبينا معانيها ، وظهر أثرها على سلوكنا ، فإن هذا سيثمر حياة للقلوب ، ومن ثم تكون العبادات ذات أثر فاعل ومُهيّج إلى حمل همِّ الآخرة ، واستشعار الوقوف بين يدي الله العظيم الكبير المتعال.

أما أن يكون الإقبال على الخير والتربية مجرد حماس وعاطفة واكتفاء بالآداب والسنن فإن هذا نقص ظاهر ، إذا كان الأساس ضعيفاً . ونلحظ من عنده العلم النظري الكثير ومع ذلك عنده الضعف الظاهر في العمل فتجد من يحفظ القرآن

---

(١) سورة المطففين ، آ : ٦ .

الكريم كاملاً مع ضعفه في الصلاة وجهله بأبجديات العلم في العبادات والعقائد.
وتجد من يحفظ العقيدة في القضاء والقدر ، ولكن واقعه العملي بعيد عن مفهوم تلك العقيدة ، وتجد من يحفظ الأذكار وليس له نصيب منها في ورده اليومي ، بحيث يجلب له الخشوع والطمأنينة ، ومن يرددها لا يتدبرها ويتذوق حلاوتها ، فليس لها تأثير في حياة القلب والروح .

وتجد من يتحدث كثيراً ويعمل قليلاً وينتقد الآخرين ، مع إهماله لنفسه وبيته ، وتجد من يتحدث عن عبادته وعلمه وعمله ومميزاته وكل ما ترتاح إليه نفسه وهو غافل عن مسألة الإخلاص وحبوط الأعمال ودواعي الرياء والسمعة والعجب والإدلال [١] .

وتجد من يعرف آفات الأعمال وما يجهله الناس من أمور العبادات ، ولكنه غافل أو متغافل عن آفات القلوب وأدواء النفوس ، إلى غير ذلك من المظاهر الكثيرة التي مرجعها إلى ضعف الإيمان . ولا يصح أبداً أن تكون التربية للأجيال هي الاقتداء بضعيف الإيمان في البرامج والأعمال . كما لا يصح أن تكون التربية كلها تأليفاً للقلوب واسترضاء للنفوس ، ويترك البناء الجاد للمؤهلين القادرين ، بحيث نهملهم بحجة التنزل للضعفاء والخاملين ، إذ لا يصح أن يهمل الكيف

---

(١) الإدلال هو : الامتنان بالعمل على الله .

بحجة الانشغال بالكم فلا بد من تخصيص القائمين على التربية والتدريس بمزيد من العناية في التربية الإيمانية العلمية والعملية .

وهذه – أخي القارىء – فصول هذا البحث بين يديك :

- تعريف الإيمان .
- مفهوم الإيمان .
- وقفة مع الرسول ﷺ المربي لصحابته الأطهار .
- نظرة في حال إيماننا .
- أهمية الإيمان .
- نعمة الإيمان .
- إذا صح الإيمان .
- روضات المؤمنين .
- من قواصم الإيمان .
- وسائل التربية الإيمانية .
- الخاتمة .

تعريف الإيمان

لغة : التصديق لقوله تعالى عن إخوة يوسف : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1] ويطلق ويراد به التأمين لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[2].

واصطلاحاً : عرفه العلماء بأنه :

قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالعصيان .

أصول الإيمان : تسمى أركان الإيمان وهي ستة :

الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

لقوله تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[3] ودليل القدر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[4] .

وقال النبي ﷺ (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[5] .

---

(١) سورة يوسف ، آ- : ١٧ .
(٢) سورة قريش ، آ- : ٤ .
(٣) سورة البقرة ، آ- : ١٧٧ .
(٤) سورة القمر ، آية : ٤٩ .
(٥) رواه مسلم برقم (٩) .

مفهوم الإيمـان

هو أن يؤمن العبد بربه إيماناً يتغلغل في نفسه ، بحيث يعتقد أن الله هو الـذي خلقه وأوجده من العدم ، وسوف يرده إليه ليحاسبه ويوقفه بين يديه ، وأن يعتقد المؤمن أن الأعمال والأرزاق كلها بيـد الله ، وأن نفسـاً لـن تمـوت حتـى تـستكمل رزقها وأجلها .

ويعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليـصيبه ، وأن الأمـة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لا ينفعونه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

ويعتقد العبد كذلك أن الله هو ناصره ومعينـه وهاديـه أو مـضله ، وشـافيه ومصيبه ، وعالم بسره وعلانيته وبتقواه وفجوره ، وأن قلوب العبـاد بـين أصـبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وأن الله له ملك السموات والأرض ، وبيده مقاليد الأمور ، وأنه يعلم السر وأخفى ، وأنه سبحانه يعلم ما كان ومـا هـو كـائن وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . إلى غـير ذلـك مـن صـفات الـرب العلي وأسمائه الحسنى وأفعاله العظيمة ، التي تليق بجلاله وعظمته .

وأن يتوجه العبد بقلبه وجوارحه وحركاته وسكناته وخطواتـه ولحظاتـه في سره وجهره وخلوته واجتماعه يتوجه بها إلى ربه ، منيبـاً إليـه موحـداً همـه وفكـره وقصده مبتغياً بذلك وجهه ، وطالباً مرضاته في عبادته إليه ، ومعرضاً بكليته عـن

المخلوقين ، فلا يرجوهم ، أو يماريهم ، أو يداهنهم ، أو يشكو إليهم ، أو يعول عليهم ، في صغيرة أو كبيرة ، بل هو موصول القلب بربه معتمداً عليه ومعتصماً به .

فإذا عاش المؤمن بهذا الشعور ، أحب العبادة وتلذذ بالذكر والدعاء والمناجاة فتهون في نفسه الدنيا ، ويسهل عليه أمرها ، سواء جاءته أو حرم منها ، وتحرر من الشح والهوى ونزغات النفس الأمارة بالسوء ، وتخلص من وساوس شياطين الإنس والجن ، ومن ثم يندفع بهذا الشعور إلى التوكل على الله ، فيقول الحق لا تأخذه في الله لومة لائم أينما كان ، ومع من كان ، ويندفع إلى العمل في سبيل الله بكليته ، لا يعرف الراحة ولا يريد التواني ، ولا يصحب المتثاقلين الذين أشغلتهم دنياهم وشهواتهم وحظوظ أنفسهم .

(إن الإيمان إذا باشر القلب ، ووالى صاحبُه الله ورسوله تميز عن غيره ، وظهرت عليه آثاره ، وتسلح به من مغريات الحياة ، وقواطع الطريق . فبدون الإيمان الحق الصادق يبطل كل سلاح وإعداد)(١) .

وبالإيمان الصحيح تفرج الكروب ، وتُحل الأزمات ، وتُستدفع البلايا وينتصر المؤمنون وتصلح حالهم ، قالَ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢).

---

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي – باختصار .

(٢) سورة الروم ، آية : ٤٧ .

ولقد تنوعت وكثرت صفات المؤمنين في القرآن الكريم والسنة المطهرة لتبين صلاح حالهم ، وسمو مقامهم ، وأن الله معهم يحبهم وينصرهم ويعينهم ويدافع عنهم ، ولا يسلمهم لعدوهم ، ولا يخيب رجاءهم ، ولا يضيع أجورهم ، ويجزيهم أعظم الجزاء بتقريبهم في دار كرامته ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم ، في جنات النعيم ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة ، آ : ٢٥٧ .

وقفة مع الرسول المربي لصحابته الأطهار

لقد ربى الرسول ﷺ صحابته تربية إيمانية صادقة ، وقد جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال ، وأبلغ معاني الحسن ، والإحسان ، فمن رآه هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول واصفه : (لم أر قبله ولا بعده مثله) فاندفع إليه الحب الصادق ، وانجذبت إليه النفوس والقلوب ، فهو القدوة أمام الصحابة في عبادته ومعاملته ودعوته وكل تحركاته ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ومن نتائج تلك التربية الجادة الصادقة التي شملت القول والعمل والنية انقلبت نفوس الصحابة بهذا الإيمان الواسع الواعي الواضح انقلاباً عجيباً ، فإذا آمن أحدهم بالله ورسوله انقلبت حياته ظهراً لبطن وتغلغل الإيمان فيه وتسرب إلى أعماقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً غير الرجل الأول ، وظهرت منه روائع الإيمان ، والبر واليقين ، والصبر والشجاعة، وظهرت منه خوارق الأفعال والأخلاق ما حيَّر العقول وتاريخ الأخلاق ، ونبتت فيه ضروب الخوف من الله والخشية له ، فلقد خرج الصحابة مع الرسول ﷺ القدوة المربي ، للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره للعدو أكثر من مائة مرة . وقال قائلهم (وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه) قال عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر) : (إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن يا رسول الله

---

(١) سورة الأحزاب ، آ : ٢١ .

حيث شئت ، وصل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ولئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك) [١] رواه ابن أبي شيبة .

وبهذا الإيمان هانت على الصحابة الأطهار دنياهم ورزيئة أولادهم ونسائهم ونفوسهم . ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ، وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة .

فقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعدما أمر ونهى ، حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم وخرج حظ نفوسهم من نفوسهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، حتى إذا كانوا كذلك وطأ الله لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا هداةً للبشرية بتوفيق الله ، ووقايةً للعالم ودعاة إلى دين الله . واستخلفهم الرسول ﷺ على أمته ، ولحق بالرفيق الأعلى وهو قرير العين [٢].

---

(١) زاد المعاد ٣ ، ص ١٧٣ .

(٢) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف (لأبي الحسن الندوي) .

وإليك خلاصة حالهم مع رسولهم الكريم من خلال هذه الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [١]. وهذا عروة بن مسعود يصف حال الصحابة مع الرسول ﷺ بعد ما رجع من الحديبية وقد بعثته قريش مفاوضاً عنها . فقال : (أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي . والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له)[٢] .

---

(١) الفتح / ٢٩ .

(٢) زاد المعاد ٣ ، ص ٩٣ ذكره ابن إسحاق ، والحديث رواه البخاري برقم (٢٥٢٩) .

نظرة في حال إيماننا

تقدم لنا حال أصحاب الرسول مع رسولهم المصطفى ﷺ ومع بعضهم البعض، فلقد كانوا الجنود المخلصين الذين جادوا بكل ما يملكون من مال وجهد ووقت ، ولقد بذلوا التضحيات الجسام من أجل دينهم وعقيدتهم ، وقد فعل بهم إيمانهم الصادق ما فعل ، فلقد غير النفوس وأيقظ القلوب وأحيا المشاعر وأثار في الحس الهيبة والإجلال للخالق المتعال ، فأين نحن من ذلك الإيمان ومن تلك النفوس الكبيرة والإرادات الصاعدة ؟ وما حقيقة إيماننا ؟ لأن لكل شيء حقيقة .

فهل نقدم إيماننا ونؤثره على أهوائنا وشهواتنا ودنيانا وقيمتنا في قلوب الناس ؟! وهل هو إيمان مجاملات نتزيا به ، ونستحي من الإفصاح عنه ؟! وهل هو دعوى بدون برهان حقيقي ؟! ثم هل من أجل الإيمان نبيع الحياة والجاه والمال والمنصب والولد والعشيرة والأوطان ؟! وهل نكتفي من الإيمان بحدود ما يجمّلنا عند الناس وما يدخلنا في مصاف المسلمين فقط ؟! وهل هو عندنا التقليد والعادة ؟! أم للإيمان عندنا شأنٌ آخر وملمسٌ في النفوس ، وتحريكٌ للقلوب يؤثر بها ويسوقها إلى الإخلاص والصدق والعمل في السر والعلن لما يرضي الله سواء كرهت النفس ام لم تكره رضي الناس أم لم يرضوا ، وهل للإيمان في قلوبنا حركة فعالة وإيجابية مؤثرة في كل عبادة وكل خطوة يخطوها المؤمن ، بحيث يكون وراءها قوة الإيمان ، وصدق التوجه ، وعلو الهمة ، حتى تحمل تلك العبادة الروحَ الصادقة ، والأثر المؤثر في كل أفعال العبد داخل العبادة وخارجها فيعيش براً نقياً

تظهر عليه آثار الإيمان ، وتفيض من كلماته وتبدو على محياه ومشيته وغضبه وفرحه وكل تصرف من تصرفاته حتى في نومه ومزاحه فهو لربه غادياً ومقيماً حياً وميتاً قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ (١) فبالله يسمع ، وبه يبصر ، ويخطو ويبطش ، فيكون النور في قلب العبد ومن بين يديه ومن خلفه قال الرسول ﷺ : (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، و رجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه) (٢).

ثم هل نستجيب لنداء الإيمان إذا نادنا بلسان حاله ومقاله قائلاً يا معشر المسلمين ، يا أهل العقيدة يا أشبال أسود التوحيد يا خلفاء محمد ﷺ على الناس . قوموا بواجبكم أحسنوا نياتكم وأصلحوا قلوبكم تصلح حالكم ، مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، ارفعوا من شأن أمتكم أيقظوها من سباتها ردوها إلى ربها ارفعوا عنها هزيمتها حلوا عقدتها أشربوها هدى ربها وسنة نبيها ، ويا أهل الإيمان إن أمتكم سادرة غائبة العقل منساقة وراء عدوها الذي يسوقها معه إلى الجحيم ومنجرَّة بذهول وراء شهواتها ومسعورة تريد الدنيا فقط تعيش وتسعى لأجلها

---

(١) الفتح / ٢٩ .

(٢) رواه البخاري برقم (٦٠٢١) .

غافلة عن آخرتها ناسية أو متناسية رقابة الله حجبتها الشبهات والشهوات وركام المتاع الخسيس عن اليقين بالآخرة وعن الجنة والنار وعن الصراط والميزان وعن القبر وظلمته وعن وعيد الله وعذابه الأليم ..

يا أهل الإيمان من للمسلمين بعد الله يعينهم وينصرهم ويضمّد جراحهم ويرد اعتبارهم ويصحح عقائدهم وسلوكهم ويذكرهم بربهم ، ومن للأعداء يقف في وجوههم ويرد كيدهم في نحورهم ويلقنهم دروساً في الصدق قولاً وعملاً . ويريهم أياماً عظاماً كأيام بدر وحنين والقادسية واليرموك ، ويا أهل الإيمان من للأمة بعد الله ؟ يسوقها إلى الجد في حياتها والاستعداد لآخرتها ويحقق فيها الخيرية التي وُعدت بها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1] .

ثم لنقف لمحاسبة أنفسنا كم نبذل لديننا من أوقاتنا وأموالنا واهتماماتنا وهل نستجيب لنداء الإيمان أم هو التمني والتغني بتاريخ الإسلام ومجد الأجداد والتحلي بسير الأبطال وجلاد الفرسان . أم هو الاستسلام لكيد العدو وحيل الشيطان وداعي النفوس للإخلاد والدعة والراحة والهوان والشهوات والتشاغل بهذه الدنيا الدنيئة الملعونة الصادة عن ذكر الله وما يقرب إليه .

فما أعظم همنا وأشد كربتنا وأطول كدنا وأجود بذلنا حينما تكون القضية دنيوية في مسكن أو سيارة أو عقار أو وظيفة ؟! وما أقل اهتمامنا وأبرد حالنا

(١) آل عمران ، آ : ١١٠ .

وأبخلنا حينما يكون الأمر في طلب علم أو دعوة أو إحسان يراد به وجه الله والدار الآخرة ! فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم أن نؤثر الفاني على الباقي والعاجل على الآجل ، نعم نعيش بهذه الحال إلا من رحم ربي في الوقت الذي يرفع فيه أهل الباطل باطلهمْ ويجاهدون في سبيله يبذلون أنفسهم وأموالهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1] اللهم إنا نشكو إليك جلد الفاجر وضعف الثقة .

فنحن مدعوون إلى تجديد إيماننا وإعادة حساباتنا لننظر فيها ولنرتبط بربنا ونعتصم به ونتوكل عليه فمن صدق مع ربه أعانه وسدده وهداه ووفقه وقبل منه وثبته ونصره وأعزه قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

إن سوء حالنا وضعف إيماننا ويقيننا ليس خاصاً بالفسقة من المسلمين اللاهين العابثين المعرضين عن ربهم ، بل إنه داء الجميع إلا من رحم الله ، من إيثار الدنيا وقسوة القلوب والحسد والتنافس وحظوظ النفس والبحث عن الراحة ، وضعف التأثير وموت الهمم ، فهذه الظواهر المسيطرة على القلوب والمضيعة للأوقات والأفكار ، فليست قضية أكثرنا اليوم حمل هم الأمة والدعوة إلى الله

(١) سورة الأنفال ، آية : ٣٦ .

(٢) سورة غافر ، آية : ٥١ .

ومتابعة الكيد للإسلام وأهله ولكن القضية الكبيرة في الحس هي هذه الدنيا ومشاغلها .

فمن تطيب له الحياة ؟ وديار الإسلام نهب للغزاة الكفرة وأعراض المسلمات تنتهك وحرماتهم تستباح . وكيف ننشغل بأنفسنا عن عدونا وبدنيانا عن ديننا وآخرتنا .

أهميـــة الإيمـــان

إن الاستقامة على دين الله والالتزام به ظاهراً وباطناً هو سبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1] فالله عز وجل كتب لأوليائه وحزبه النصر والتمكين والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يظن الظانون أن جزاء المؤمنين هو في الجنة فقط بل نعمتهم وكرامتهم في الدنيا والآخرة، ولكن كيف هذا؟ ونحن نعلم ما أصاب الأنبياء من القتل والتشريد والأذى والفتن والمحن والابتلاءات وما أصاب من دون الأنبياء من المجاهدين والعلماء والدعاة والمصلحين، بل وكل مؤمن في الدنيا. والجواب عن ذلك أن ما ينال أولياء الله من أذى ومصائب إنما هو على أجسادهم وظواهرهم وأموالهم ودنياهم وإلا فقلوبهم وأرواحهم في سرور إذا عملوا الصالحات فيزدادون راحة وطمأنينة وسكينة لقول الرسول ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس. يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة)[2].

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٢) رواه أحمد في المسند برقم (١٤٠٠).

وهذه حكمة الله وسنته في خلقه ، أن يقيّض لأوليائه الشياطين والكفرة والظالمين فيجاهدهم المؤمنون لتقوم سوق الجهاد في هذه الدنيا التي هي دار الامتحان فيرفع الله درجات أوليائه بما حققوا من جهاد وصبر واحتساب وليس ذلك لهوانهم على الله كلا ، فالجهاد هو أحب الأعمال إلى الله والمجاهدون هم أهل المثوبة والجزاء العظيم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾(٢) .

والمحن والأذى والابتلاءات ليست فقط خاصة بالمؤمنين الصابرين الراضين المحتسبين الشاكرين بل هي على الناس كلهم برّهم وفاجرهم مسلمهم وكافرهم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾(٣) ولكن منهم من تكون له الابتلاءات شقاء وعذاباً في الدنيا والآخرة فلا يثاب عليها كحال الكفار ومنهم من تكون له شقاء في الدنيا لا يثاب عليها كحال الكثير من المسلمين الذين غفلوا عن الأجر والثواب ورفع الدرجات وتكفير السيئات . ومنهم من تكون له

(١) سورة الصف ، آية : ٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية :

(٣) سورة البلد ، آية :

الابتلاءات ثواباً وأجراً وغنيمة كحال المؤمنين المحتسبين ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾(١).

إننا حينما ننظر في حال الكفرة الذين لعنهم الله وطردهم وأخزاهم وأبعدهم والذين هم شر من الحمير والكلاب قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾(٢) نجدهم أشقياء تعساء أذلة صاغرين يعيشون ظلام القلوب بوحشة الكفر وغياب الإيمان واليقين فتشوهت حياتهم وضاقت أنفسهم بأنفسهم رغم ما هم فيه من سعة خارجية وحضارة مادية فإن الله أبى إلا أن يُذل من عصاه وخرج عن عبوديته قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾(٣) . وهؤلاء الكفرة هم حطب جهنم يوم القيامة وبئس المصير . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾(٤).

فحينما نتذكر حالهم في الدنيا والآخرة نستشعر حينئذ عظيم فضل الله علينا بنعمة الإيمان حيث هدانا ووفقنا وجعلنا من أهل الإيمان الراكعين الساجدين المستجيبين لأمره والداعين إلى سبيله حيث اختارنا الله وتفضل علينا بفضله

---

(١) سورة محمد ، آ- : ٣١ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٥٥ .

(٣) سورة طه ، آية : ١٢٤ .

(٤) سورة الأحزاب ، -- :

وجوده قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(١).

فتفطن أيها المؤمن حيث اجتباك ربك وخصك من دون أكثر العالمين بنعمة الإيمان التي لم تحصلها أنت بنسبك وشرفك ومالك أو حيلتك أو علمك ، ولكنها المنة المحضة من الله المنعم المتفضل فهل يليق بمن اجتباه ربه وخصه وأغاثه وأنقذه من الكفر وهداه بعد الضلالة هل يليق به أن يرخص هذه النعمة ؟ ويتساهل بها ويأخذها مأخذ الهزل والتهاون ؟ .

وإن من أعطاه الله نعمة الإسلام والإيمان عليه أن يخاف أعظم الخوف أن تزول منه تلك النعمة أو تضعف ، فإن أعظم المصائب وأشدها هي مصيبة الدين ، أن يصاب الإنسان في دينه فيرتد أو ينتكس أو يهوي في دركات الفتن والشبهات والشهوات والمعاصي بعد الهدى والاستقامة فليس للمؤمن المتذكر أن يتعامل مع قلبه معاملة الآمن المطمئن ، لا بل عليه أن يذكر دائماً بقلبه ولسانه يا رب يا رب قال تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (٢) وقوله تعالى عن آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣). وأن يستحضر على الدوام قول المصطفى ﷺ : (يا مقلب

---

(١) سورة الحجرات ، آ : ١٧ .

(٢) سورة آل عمران ، : ٨ .

(٣) سورة الأعراف ، آ : ٢٣ .

القلوب ثبت قلبي على دينك)(١) . وأن يخشى العبد من سوء الخاتمة والعاقبة النكراء فيكون الجزاء النار ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال النبي ﷺ : (إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار ، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة وإنما الأعمال بخواتيمها)(٢). قال ابن رجب : (فيما يبدو للناس ، إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك)(٣) .

وقال ابن القيم : (لما كان العمل بآخره وخاتمته ، لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة تُخذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملها ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه ، وقد تكون تلك الآفة إبطان خلاف الظاهر كالكذب أو السخرية بالآخرين والتكبر عليهم أو الاستهزاء بأهل الخير أو حب النظر إلى النساء والمردان أو السعي بالغيبة والنميمة وامتهان تلك الوظيفة الخسيسة)(٤) .

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٠٦٦) .
(٢) رواه البخاري برقم (٦٠١٢) .
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٥٠
(٤) واحات الإيمان ، المجموعة الأولى ص ١٣٣ .

نعمة الإيمان

إن الإيمان بالله نعمة عظيمة يهبها الله لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١). فهو نعمة تزكي العمر وتبارك الحياة وترفع قلب المؤمن عن هذه الدنيا وزهرتها إلى التعلق بربه والدار الآخرة . وهي نعمة لا تشترى ولا تباع ولا تُهدى بين الناس لأنها الصلة بالله ومناجاته وذكره ودعائه وطاعته والتذلل بين يديه فلا يعطيها الله إلا من أناب إليه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾(٢).

وفي الإيمان الحياة الحقيقية والسعادة الأخروية ، فهو سبيل أهل الجنة ورياض الموفقين وعنوان قلوبهم وصفاء أرواحهم ونور وجوههم ، فهو النعمة التي لا تعدلها نعمة لأنه يقربك من مولاك وتحل في جنته وقربه هناك في النعيم المقيم وفي الإيمان النجاة من النار دار البوار ومصير الكفار وأهل العلو والاستكبار .

فتحقيق الإيمان وتصحيحه وتنقيته وتعاهده وسقيه هو مطلب العابدين وغاية الموحدين ، وأنوار كلمة التوحيد في قلوب العباد درجات وهي تختلف باختلاف القلوب ومنازلها .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٣ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ٢٧ .

قال في شرح الطحاوية : (بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) في قلبه كالشمس ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري وآخر كالمشعل العظيم وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف . ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه وهذه حال الصادق في توحيده فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي ﷺ : (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[1] متفق عليه من حديث عتبان بن مالك .

فالإيمان إذا كان صحيحاً فإنه يغلب كل قوة ويقيل كل عثرة ويحل كل قضية، لأنه الدين الحق الذي من اعتصم به عصم ومن اهتدى به هدي فهو العاصم بإذن الله من كل بلية وشهوة وشبهة وبالإيمان خلاص العبد في دنياه من مشاكله وهمومه قال ﷺ : (إن النور إذا دخل الصدر انفسح) فقيل يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف ؟ قال (نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله)[2] .

(١) رواه البخاري برقم (٤٠٧) ومسلم برقم (١٠٥٢) .
(٢) المستدرك على الصحيحين برقم (٧٩٧٤) .

وقال ﷺ : (قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)[١] .

وبالإيمان يرتفع المؤمن من كل الاهتمامات المادية والشواغل الدنيوية لأنه يعيش في هذه الدار لرضى الله وطلب ما عنده لا لنفسه وشهواتها وطموحاتها . وبالإيمان ينفتح القلب ويسمو توجهه ويتعلق بربه . قال شيخ الإسلام (ما يفعل أعدائي بي أنا جنتي في صدري ، فطردي سياحة وسجني خلوه وقتلي شهادة) وقال إبراهيم بن أدهم (والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجادلونا عليه بالسيوف) والمقصود بالنعيم نعمة الإيمان . وبالإيمان ينتسب المؤمن إلى خيرة الخلق ويكون في صفهم وينتمي إليهم ويحشر معهم في الجنة إن شاء الله وينصرهم ويكون من أتباعهم فالمؤمن في زمرة الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين .. قال تعالى :﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾[٢].

أما أهل الفجور والإعراض ومحادة الله ورسوله والمؤمنين فإنهم ينتسبون إلى شرار الخلق وسقط الناس من الكفرة والمتجبرين . قال ﷺ : (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً وبرهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف)[٣].

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٤٦) .

(٢) سورة النساء ، آية : ٦٩ .

(٣) أحمد برقم (٦٢٨٨) وابن حبان برقم (١٤٨٩) والطبراني برقم (١٤٣١) وسنده جيد .

إذا صـــح الإيمـــان

إن للإيمان ثمرات عظيمة وأبواباً من الخير كثيرة ولن نستطيع لها عداً لأنه النعمة الأولى والأخيرة من يوم أن يكتب للجنين السعادة حتى تطأ قدمه رياض الجنة وهو يتقلب في العبودية لله راضياً به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً .

وهو يعيش لهدف واحد عزيز عظيم فلا ضير عليه ولا هوان مما يلقى في سبيل ذلك .

وإليك – أخي القارىء – هذه القطوف والثمرات والنتائج والنهايات إذا صح الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[(١)]
وهي بالجملة صلاح الدنيا والآخرة واستقامة الحال ورضى الرحمن ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[(٢)].

وأنه بالإيمان الصحيح تنقلب الحال عما هي عليه من الركون إلى الدنيا وأسبابها إلى اتصال القلب بالخالق والتعلق فيه وطلب مرضاته ، فتصبح الآخرة هي الهم والمطلب وكل حركة وسكون من أجلها .

واقتصرت على تلك الثمرات لبروزها وأهميتها وإلا فإن الإيمان يجلب كل خير ويطرد كل شر والله المستعان وعليه التكلان وبه التوفيق .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٠١ .
(٢) سورة النحل ، آية :

أولاً : (محاسبة النفس) إذا صح الإيمان حاسب العبد نفسه ورعاها وكبح جماحها وكسر حظوظها ودعواها في سيرها وعجلتها إلى المنافسة والعلو والتقدم والظهور على الآخرين والتعريض بأهميتها ودورها وحاجة الناس إليها.

فما ضعف الإخلاص واستشرى الرياء وما حل الحسد والبغي إلا بسبب إهمال النفس الأمارة بالسوء وتركها لتنال شهواتها في المال والرئاسة والمدح والتعاظم ، فكن لنفسك وقافاً ورادعاً وكن لها حارساً وزاجراً ، فالنفس هي مركز الاهتمام والاتهام وهي البداية والنهاية للنصر والتوفيق أو للخسارة والخذلان وهي مناط الجد والعمل والفتح المبين أو بوابة الكسل والفتور ، وهي طريق الهمم الشماء والعزائم العالية أو سبيل الردى والهلاك ، فمن صح إيمانه علم أن عدوه الحقيقي الأول هو نفسه ، فإذا انتصر عليها غلب أي قوة وانتصر في كل معركة ونجا من الهلاك.قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١) ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾(٢) . قال الحسن رحمه الله : (لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه ماذا أردت بأكلتي ، ماذا أردت بشربتي ، والفاجر يمضي قدماً لا يبالي) ، وكل مسلم يعلم أنه يجب عليه أن يصلي ويصوم ويحج ويزكي ويتعبد بكل عبادة خالصة لله ، فما الذي يُنقص العبادة ، وما الذي يفسدها ، وما الذي يذهب بروح العبادة وخشوعها . إن من أبرز ذلك هو النفس

---

(١) سورة الرعد ، آية : ١١ .

(٢) سورة الشورى ، آية :

التي تتلفت ولا تصبر ولا ترضى باطلاع الله فقط على العمل فلا تكتفي بذلك بل تريد اطلاع الناس ومعرفتهم .

ثانياً : (اليقين في الحياة الدنيا) إذا صح الإيمان . صغرت الدنيا في عين المؤمن وقلبه وزهد فيها وهانت عنده وعلم أنها السحَّارة التي تسحر القلوب والغرارة التي غرت كثيراً من الناس ، وعلم المؤمن أن حبها رأس كل خطيئة وأنها متاع رخيص خسيس زائل ، فمهما أقبلت فهي مدبرة ومهما أعطت فهي مفقرة ، ومهما جمعت فهي مفرقة، فهي دار الشرور والغصص والأمراض والمصائب والأكدار ، فمن صح إيمانه واستقام قلبه لم يركن إليها ولم يخسر من أجلها ، فهي دار من لا دار له ومال من لا مال له ويجمعها من لا عقل له ، فأمنها مشوب بالخوف وصحتها بالسقم وزيادتها بالنقصان ، ولما نزلت بقلوب أكثر المسلمين أصبحوا من أجلها يحبون ويبغضون ولها يكدحون ويتنافسون ، وعليها يصبحون ويمسون ، فلما كانوا كذلك ضعف هم الآخرة في القلوب ونسي اليوم الموعود ، فضعف أثر الموعظة وقل الاعتبار والتدبر للقرآن ونسي الاستعداد والوقوف بين يدي الله لأن الدنيا غمرت القلوب وطغى التفكير فيها وشهواتها على أي همٍّ فمن صح إيمانه لم يغتر بها وأخذ منها لآخرته ، ولم تأخذ منه ، وعلم أن كل يوم فيها يناديه ويقول : (يا ابن آدم أنا يوم جديد وعليك شهيد)[1] وسأودعك إلى غير رجعة فأودعني ما شئت من خير أو شر . قال تعالى مخبراً عن حقيقتها ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾[2] .

---

(١) من قول بالحسن البصري رحمه الله .

(٢) سورة الحديد ، آ : ٢٠ .

قال الشافعي رحمه الله :

ومـن يـذق الـدنيا فـإني طعمتهـا * وسـيق إلينـا عـذبها وعـذابها
ومـا هـي إلا جيفـة مـستحيلة * عليهـا كـلاب همهـن اجتـذابها
فـإن تجنبتهـا كنـت سـلماً لأهلهـا * وإن تجتـذبها نازعتـك كلابهـا

قال ابن القيم رحمه الله : (ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل وتفريق القلب وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول الله تبارك وتعالى : (ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ، ولم أسد فقرك) [١].

قال بعض السلف من أحب الدنيا ليوطنْ نفسه على تحمل المصائب (ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث : هم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضي) وذلك ان محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على ما تاب) [٢] .

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٠) .
(٢) رواه البخاري برقم (٥٩٥٦) .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز وفيه : (ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه . زواها عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه) [١].

(١) إغاثة اللهفان . ج ١ ، ص ٣٦ وما بعدها باختصار .

ثالثاً : (**الاهتمام بأعمال القلوب**) إذا صح الإيمان . صار اهتمام العبد بأعمال قلبه أعظم من اهتمامه بأعمال جوارحه ، لأن المدار على ما في القلب والجوارح له تبع ، فالقلب هو ملك والجوارح وهي جنوده ، قال رسول الله ﷺ : (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**)(١) .

فما ضعف أثر العبادة على السلوك إلا بسبب الغفلة عن أعمال القلوب ، ولما ذهب الخشوع في الصلاة والتدبر فيها صار كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، وصار صيامهم وزكاتهم وكل عبادتهم أعمالاً لم تتحقق فيها التقوى فلم تؤثر في سلوكهم وضعف في قلوبهم خوف الله ورجاؤه ، فغلبت على العبادات الشكلية دون المضمون والعادة دون العبادة .

وأصبح معظمها رسماً وصورة لا برهاناً وحقيقة ، فترى الساجد والصائم يتعامل بالربا الصريح بكل ارتياح ، وترى التالي لكتاب ربه يبيت عاكفاً على ألوان الملاهي والمنكرات ، وترى الذاكر لله الملبي الطائف الساعي تراه وقد تلوث بصنوف من الشرور والسيئات الظاهرة والباطنة ، وترى اهتمام الحاج والمعتمر بمؤنة العمرة والحج والإعداد لها من المسكن والمأكل والراحة أعظم بكثير من محافظته على الخشوع في صلاته وجلوسه في الحرم للتعبد والتذكر .

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠) .

وبالجملة فإن أعمال القلوب كالخشوع والتضرع والإنابة والخوف والرجاء والاستغاثة والمحبة والتوكل وشهود مشهد الإحسان من الله وكمال المراقبة والصدق والإخلاص ومعاهدة القلب وسقيه بماء التقوى والحذر عليه من الفساد والرياء والسمعة والعجب والإدلال . هذه الأعمال وغيرها تشتد عناية العبد بها ومعالجتها إذا صح إيمانه ، والجزاء من الله على الأعمال بحسب ما في القلوب من الصدق والإقبال على الله وإظهار الذل والفقر والمسكنة قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1] فقد يصلي رجلان في موقف واحد وتجد بينهما من الفرق كما بين السماء والأرض .

قال ابن القيم رحمه الله : (إن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب) وإذا لم تصاحب أعمال القلوب أعمال الجوارح فإن العبادة لا تثمر لصاحبها لذة ولا حلاوة ولا انشراحاً ولا زيادة في الإيمان فتفقد العبادة روحها وهذا هو حال الغالب من المسلمين .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ٨٨ - ٨٩ .

رابعاً : (**الصدق في الأخوة**) إذا صح الإيمان . صدقت الأخوة في الله ، واستشعر المؤمن التقرب إلى الله ، بنفع أخيه المسلم وخدمته والذب عن عرضه وستر زلته وإطعامه إذا جاع وتفقد حاله والوقوف معه والعطف عليه ، فليست الأخوة شعاراً يرفع ودعوى تقال ومثالية فارغة ، ولكنها واقع ملموس وأثر ترغم فيه النفس على البذل والتضحية والصبر على الخدمة وإعزاز عرض المسلم ودمه وماله .

وليست الأخوة مؤانسة فقط وقت السعة والرخاء ثم تعود إلى معاداة في حال اختلاف وجهات النظر ومخالفة الرأي ، فحينئذ تنسى الأخوة وحقوقها وتنتهك الأعراض وتمزق أواصر المحبة وإذا صدقت الأخوة في الله بقيت ثابتة ولو أساء إليك أخوك أو قصر في حقك . قال العلماء : (حقيقة الأخوة ألا تزيد في البر ولا تنقص في الجفاء) .

سبحان الله أين المنهج الشرعي في عرض المسلم ؟ ووجوب مناصحته وستر زلته وتحريم هجره ، وأين نحن من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[١]، وقوله ﷺ : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)[٢].

لماذا يوسّع الخلاف ؟! ونسعى بالنميمة ونقع في الموبقات المهلكات ؟ الجواب واضح ، إنه لحظ النفوس وطاعة الهوى والشيطان والتعصب الأعمى .

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٠ .

(٢) رواه البخاري برقم (٤٦٥٠) .

ومَن المستفيد من التجريح وإسقاط إخوانك المسلمين وإساءة الظنون بهم وإفساد ذات البين التي تحلق الدين وتفرق القلوب وتشكك الناس وتجعلهم يفقدون مصداقية الدعاة وأهل الخير ؟! .

فيا من كنت كذلك هل تريد أن يعرض الناس عن الخير ويقولون : اصطلحتم أيها الدعاة فأتوا إلينا ؟ وهل تريد أن يصرف حماس الناس للخير وإقبالهم عليه ، إلى الانشقاق والتحزب وملء الصدور بالإحن والمخازي ؟! إن دين الله جاءنا ليصلح حالنا ويجعلنا أخوة متحابين لا خصماء متضادين ، ويربي فينا الأخوة والنصرة والصبر والعفو .

إن من حقوق إخواننا المسلمين والدعاة خاصة أن ندعوا لهم ونضع أيدينا في أيديهم ، وإن صدر منهم ما نراه خطأ فلنبادر بمناصحتهم غيرة لله لا لحظوظ أنفسنا ، فمن استجاب فالحمد لله ، ومن لم يستجب فلا يجوز أن نكون عوناً للشيطان عليه ، ولا أن نستحل عرضه ، ولا أن نفرح بمساءته خصوصاً إذا خالفناهم فيما هو من مواطن الاجتهاد .

وحتى من خالفنا فيما فيه نص فنسمع ما عنده ونبين له الحق ، فإن رجع وإلا فلا نوافقه في تلك المسألة الواحدة ، ولا نرفض ما عنده من خير أصاب فيه الحق ، وكم في تاريخ المسلمين من خلافات بين علمائهم في الفقه ورجال الأحاديث ومسائل كثيرة ، فما دام أخوك المسلم من أهل السنة والجماعة الذي لا تعرفه ببدعة، فهو على الحق والخير وإن اختلفت معه واختلف معك فيما هو من مواطن

الاجتهاد ، وللرأي فيه مساغ . وهل سوّغَ للصالحين أن يشنعوا ويؤذوا من خالفهم [١].

إن الأخوة الصادقة أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك لقول النبي ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [٢]، ومن أبرز مظاهر تفريطنا في حقوق إخواننا المسلمين هو نسيان مصابهم وما هم فيه من جوع ومآسي وأمراض وجهل وبدع وشركيات وخوف وتشريد وقهر وحرمان ، وهم مع ذلك يشعرون بأننا مشغولون بتكميل حوائجنا وزينتنا من مراكب ومساكن ومآكل ، والبحث عن الرفاهية حيث يعاني بعضنا من السمنة وكيفية تنظيم الأكل والمحافظة على الوزن ، فأين الشعور بالجسد الواحد ؟ وأين تحقيق الأخوة الصادقة ؟ وهل نظن أننا بمنجاة من أن يسألنا ربنا عنهم وهم في لهيب الحرمان تفتك بهم الفتن ويمزقهم الأعداء وتتكالب عليهم الدنيا متآمرة ؟ وأين الدعاء لهم ؟ وأين تخصيصهم بشيء من المال يسير استخلفنا الله عليه ليبلونا ، فأموالنا ليست لنا ، وإنما هي ملك لله قد جعلها الله أمانات عندنا ، فهل نضع الأمانة حيث يريد الله ، أم نصرفها فيما تشتهي النفوس وفيما يجملنا عند الناس حتى ننال منهم المديح والإعجاب في سيارتنا الفخمة المتجددة وفي مناسباتنا التفاخرية ، فأين الصدق في النفقة ؟ وهل نظن أننا بأمن من أن يقع علينا ما وقع على إخواننا الجوعى والمشردين والخائفين المقهورين والغاوين والضالين .

---

(١) انظر للاستزادة كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٢) رواه البخاري برقم (١٢) .

ولقد حكى الاتفاق الإمام القرطبي وغيره من أهل العلم : (على أنه إذا قامت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها وفي الإقناع وغيره ، وإطعام الجائع ونحوه واجب إجماعاً)(١) فأين أرصدتنا في البنوك ؟ فما أعظم غفلتنا الكبيرة عن واجباتنا الشرعية . والله هو الغني الرزاق الذي بيده خزائن السموات والأرض ،فليس البخل والحرص على المال هو الذي يجمع المال ويحميه من إهلاكه ، ولكن الشيء الذي يبارك المال ويزكيه وينميه ويطهره هو إنفاقه لوجه الله ، وبذله فيما يرضيه مع الصدق والإخلاص والبعد عن الرياء والسمعة ومحبة إعلام الناس ، قال رسول الله ﷺ : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)(٢) . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾(٣)، وقال الله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾(٤).

وقال ﷺ : (إذا تصدق أحدكم بعدل تمرة من كسب طيب والله لا يقبل إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون كالجبل العظيم)(٥) ، وقال ﷺ : (فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)(٦) فأين إيماننا عن تدبر مثل هذه النصوص العظيمة ؟! اللهم غفراً .

---

(١) حاشية الروض امربع لابن قاسم ج ٣ ص ٣٤٤ .
(٢) رواه مسلم برقم (٤٦٨٩) .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٣٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
(٥) رواه البخاري .
(٦) رواه البخاري .

فيا أيها المحب ... إن الكلام عن الأخوة ذو شجون ،فليس المراد فقط أن تكون ذا مال حتى تتصدق أو تأتيك إساءة فتصفح ، أو يكون لك حق فتتركه أو تكف لسانك عن سب أخيك . كل هذا وغيره مطلوب شرعاً ولكن معنى الأخوة اشمل وأعم وأكبر وأعظم من ذلك . إنها عبادة من أجل العبادات تستشعر في كل عمل تبذله لأخيك وكل كلمة تقولها له وكل نية تبيتها في قلبك من محبة وشفقة ، تستشعر في كل ذلك أنك تتقرب إلى الله بذلك سواء عرفت ذلك الأخ أم لم تعرفه وسواء أحسن إليك أو أساء ، وسواء كان من داخل بلدك أم من خارجه ، وحينما تقدم له معونة وإحساناً لا تنتظر منه الشكر ، ولا تتطلع نفسك إلى مقابلة ذلك بإحسان منه ، وإنما تتطلع إلى الجزاء من صاحب الجزاء الأعظم .

اكتف بذلك عن النظر إلى الخلق ، وتخلص من هتاف النفس وداعيها الذي يدعو إلى الأنانية والأخذ بالثأر والاستئثار بالنعمة دون الآخرين ، فما أجمل العفو والإحسان وما أكرم صاحبه ! وما أعز نفسه وأحلاها حين يترفع عن مطامع الدنيا الدنية وحطامها ، وحينما يسمو بقلبه الكبير عن الهنات والزلات والعثرات فيرتفع عنها بحسن خلقه وصفاء ضميره الحي وحلاوة إيمانه .

قال ﷺ : (وما تواضع أحد لله إلا رفعه)[1]. ألا تريد أيها المؤمن المتيقظ أن يحبك الله ويعفو عنك ويدخلك في رحمته ، فإن الله يحب المنفقين والعافين عن الناس والمحسنين والصابرين ، فإذا أحبك الله وقبل منك وأعطاك فمن ترجو

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٦٨٩) .

بعده ومن تؤمل ، وأي شيء تريد أكثر من الجنة : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(١) قال سبحانه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾(٢) .

قال القرطبي : فنفسك ، خذ منها ولا تأخذ لها ، وانتصف منها ولا تنتصف لها ، وكن عليها لا معها .

أما التشفي والانتقام والضن عن إخوانك بجودك وإحسانك ، والخشونة والمقاصة وإساءة الظن والكلام في الآخرين والغضب والانفعال وإطالة اللسان والغيبة والنميمة والحسد وكثرة الكلام .. فهذا الكل يجيده ، وهو أمر سهل على النفوس ، بل النفوس تتشوق إليه وتفرح فيه ، وهنا يأتي دور صاحب الإيمان الصحيح الذي يمسك بزمام نفسه المتغلب عليها ، فيرغمها ويتحامل عليها ليكون الباذل المسامح الرضي الكريم الشهم العزيز الصابر الذي طهر قلبه من الأوضار وإساءة الظنون ، ولسانه من القيل والقال ، واستمع إلى كلام ربك حيث يقول : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(١) سورة ق ، آية : ٣٥ .
(٢) سورة الأعراف ، آية :
(٣) سورة فصلت ، آية :

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (١).

وقال ﷺ : (الإيمان الصبر والسماحة) (٢) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٣٣ - ١٣٤

(٢) صحيح الجامع ج ٢ ص ٤١٥ برقم (٥٥٤) .

خامساً : (قدم حياتك في سبيل الله) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز: (الحياة في سبيل الله أعظم من الموت في سبيل الله) إذا صح الإيمان . صدق العبد في طلب مرضاة ربه وبحث عن كل سبيل يوصل إليه ، وعلم أن إراحة النفس واطمئنانها هناك في الجنة إن شاء الله ، لأن الدنيا دار البذل والعمل والجد والاجتهاد للصادقين الذين تتحرك قلوبهم فلا تهدأ ولا تقف قبل الموت ، فالمشمر لا يتخذ طريقاً واحداً للوصول إلى ربه إنما هو مجاهد يضرب في كل طريق بسهم يتقلب بين الدروب فهو بين طلب علم وصلاة ودعوة وصدقة وذكر وجهاد وإحسان إلى الخلق وحج وصيام وصبر ومعاناة ، فهذه حاله لا تقف عند طريقة واحدة وعمل واحد ليقول هذا دربي واختصاصي قال الرسول ﷺ : (لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة)[١] .

والصادق لا تمنعه نفسه أو منزلته وجاهه وهيبته أن يطعم مسكيناً أو يطرق باباً ليغيث ملهوفاً أو يزور أحداً من أوساط الناس خامل الذكر ، أو يمسح رأس يتيم ، أو يقدم خدمة لمحتاج نعم لا تمنعه نفسه التي تريد التوقير وعدم سقوط الهيبة ومجالسة أصحاب الشأن ولا يمنعه علمه وقيمته عند الناس ما دام يريد وجه الله بل كلما ازداد الصادق علماً ازداد خشية لله واحتقاراً لنفسه وشغفاً ببذل الخير والإحسان ، وازداد معرفة بربه العظيم المتعال ، فانظر في نفسك فلا تجعل وقتك

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦١٠) وقال حديث حسن غريب .

كله فسحة للتفكه والأعمال المباحة العادية أو لرحلات المؤانسة والأسفار التي لا تحمل هدفاً أو للقاءات التي ليس من ورائها فائدة تقربك إلى ربك .

وتلفت مرة ثانية لتجعل كل وقتك في سبيل الله وحرك قلبك بما عليه أسلافنا الصالحين من حركة دوارة بين العلم والجهاد والدعوة وتوديع السكون ، فالرجل الإيجابي الفعال هو الذي يتعب أكثر مما يستريح ويعطي أكثر مما يأخذ ، ويعمل أكثر مما يتكلم ، ولا تحيا في هذه الدنيا حياة الآمنين في رغد العيش والظل والظليل والماء البارد والجو الأنيس ، لا وإنما كابد .

واعلم أنه إذا كان همك وعملك في سبيل الله فإن هذا علامة السعادة في الدنيا والآخرة ، فافرح بذلك أعظم الفرح فإن الله لا يعطي فعل الخيرات إلا من يحب ، وهذا هو التوفيق ، فالذكر والقرآن والجهاد والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعوة وكل الطاعات قد حُرم منها المحرومون المغبونون وأعطاها الله لمن أحبهم ووفقهم ، وهداهم وأنار قلوبهم وشرحها للإيمان ، فاسأل ربك الهداية والتوفيق والإعانة والقبول والثبات ، وقد قيل إذا أردت أن تعرف قدرك عند السلطان فانظر في أي الأعمال يوليّك .

سادساً : (ذكر الله الغنيمة الباردة) إذا صح الإيمان . أشغل العبد لسانه وقلبه بذكر الله .قال الله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. وإنما أفردت الذكر من بين العبادات سوى الصلاة ، لأنه خير الأعمال ولأن الغفلة عنه كثيرة على سهولته ويسره ، فالذكر هو قوت القلوب ودواء الأرواح وسكينة النفوس فيه يجد الذاكر الحلاوة والأنس والنعيم واللذة ، قال ابن القيم رحمه الله : (وبه تستدفع الكربات وترفع الدر جات وتُقال العثرات وبه يطفىء الذاكرون التهاب الحريق ويقاتلون قطاع الطريق)[2] .

والذكر يربط المسلم بخالقه ، ففيه حياة القلوب وحفظها ، وقد ذكر ابن القيم رحمه اله في كتابه المبارك (الوابل الصيب) أكثر من سبعين فائدة للذكر منها: أنه يطرد الشيطان ، ويرضي الرحمن ، ويزيل الهم والغم عن القلب ، ويورث العبد المراقبة لله والإنابة له والقرب منه ، ويفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة ، ويورث الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ويورث ذكر الله تعالى له ، لقوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[3]، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً . فالذكر سر التوفيق وعنوان المفلحين ودليل الموفقين . لأنك بذكر الله تذكر أعظم مذكور وإذا ذكرت الله ذكرك . وإذا ذكرك فهو راض عنك . وإذا رضي عنك أدخلك الجنة وقربك إليه وحرمك على النار .

---

(١) سورة الرعد ، آ- : ٢٨ .

(٢) مدارج السالكين (منزلة الذكر) .

(٣) سورة البقرة ، آ- : ١٥٢ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء) وقال ابن القيم : حضرت شيخ الإسلام مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليَّ وقال : هذه غدوتي ولو لم أتغدها لسقطت قوتي . والذكر يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه وإذا انصرف العبد إلى ربه بذكره في الرخاء عرفه في الشدة والذكر سبب لاشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فإن العبد لا بد له أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ومن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ومن يبس لسانه عن ذكر الله ترطب بكل باطل ولغو وفحش ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهو أيسر العبادات وأجلها وأفضلها ، لأن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك ، والذكر غراس الجنة لقول النبي ﷺ : (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد اقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة)[2].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٨٤) .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن غريب صحيح برقم (٣٣٨٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اله ﷺ : (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليَّ ما طلعت عليه الشمس) [١].

ذلك الفضل من الله وكفى بالله علياً ، فكيف تضيع منا الساعات بل الأيام والشهور والسنوات ونحن غافلون عن مثل هذا سواء في السوق أو العمل أو البيت أو المسجد . أجور أعظم من الجبال وأكثر من زبد البحار ، ولكن لزهدنا في الخير وقسوة قلوبنا واشتغالها بالسفاسف نُحرم من الخيرات ، وبقية العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها هي من ذكر الله لقوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[٢] . وقوله عن الحج : ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[٣] .

وهنا فائدة . قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا :بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله) [٤].

فهل الذكر أفضل من إنفاق الذهب والفضة والجهاد في سبيل الله وهل الذكر هو خير الأعمال ؟ يرى بعض العلماء كابن حجر والشوكاني أن الذكر إذا كان في القلب واللسان ، وصاحب الذكر تعظيم الله والتدبر والخشوع والإنابة إليه فإنه يكون أفضل الأعمال . والله أعلم .

---

(١) الوابل الصيب رواه مسلم برقم (٤٨٦١) .

(٢) سورة العنكبوت ، آ : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة ، آ : ٢٠٣ .

(٤) رواه أحمد برقم (٢١٠٦٥) .

سابعاً : (**عبودية الانكسار**) إذا صح الإيمان . وحيا القلب تعلق العبد بالله تعلق المضطر المنيب المنكسر المسكين الضارع الذي يضع خده على باب مولاه مظهراً ومستبطناً الفقر والحاجة وأنه بالله وإلى الله لا بنفسه الضعيفة .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : (ولا يزال يضرب هذا القلب السليم على صاحبه حتى ينيب إلى ربه ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المضطر الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به ، فبه يطمئن وإليه يسكن ويأوي وبه يفرح وعليه يتوكل فإذا حصل له هذا سكن وزال اضطرابه ، وانسدت تلك الفاقة ، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبداً ، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه ،وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له ، فحينئذ يباشر روح الحياة ، وإذا تعلق القلب بالله استغنى به عن كل من سواه فيستغني عن المخلوقين ويعظّم ربه في نفسه ولسانه فلا يسأل المخلوقين ولا يرجوهم ولا يسترزقهم أو يشتكي إليهم ، لأنه غني بربه راض بما قسم له مولاه ، فهو يعتقد أن اختيار الله له أعظم من اختياره لنفسه)[١] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله [٢]: (فالعبد لا بد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً له فقيراً إليه ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما

---

(١) إغاثة اللهفان ج ١ ص ٧١ . باختصار .

(٢) العبودية لشيخ الإسلام ص ٩٠ .

أبيحت للضرورة ، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة كقوله ﷺ : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزعة من لحم) [١]، وقوله ﷺ : (ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك) [٢] فكره أخذه مع سؤال اللسان واستشراف القلب ، وقال ﷺ : (ومن يستعف يُعفه ا ٰ ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبَّر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) [٣] . وقول النبي ﷺ لابن عباس : (إذا سألت فاسأل الله) [٤] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾[٥] . فلا يسأل رزقه إلا من الله ، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال تعالى عن يعقوب : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٦]. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سُمع نشيجه من آخر الصفوف) .

وأعظم باب يدخل منه العبد على ربه هو باب الذل والانكسار . قال ابن القيم رحمه الله : (إن الجبر من الله تعالى يكون على قدر انكسار العبد بين يدي ربه) والمنكسر بين يدي ربه يمحو من نفسه داء الكبر والغرور والتعالي ويزول منها

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي برقم (١٧٢٤) .
(٢) رواه البخاري ومسلم برقم (١٣٧٦) .
(٣) رواه البخاري ومسلم برقم (٢٤٤٠) .
(٤) رواه الترمذي برقم (٢٢٤٠) وأحمد برقم (٢٦٢٧) والحاكم .
(٥) سورة العنكبوت ، آ- : ١٧
(٦) سورة يوسف ، آ- : ٨٦ .

دعاوى العلم والمؤهلات والجاه والنسب والمركز والمنزلة في قلوب الخلق ، والمنكسر بين يدي ربه يعترف بالضعف والهوى والعجز والهوان وقلة الحيلة والفقر والمسكنة ، ولسان حاله ومقاله دائماً . يا رب عبدك وفقيرك وضعيفك ومسكينك وداعيك وراجيك ومؤملك ومتوليك أسألك عفوك ورحمتك وهداك ورضاك وتوفيقك وعافيتك وألا تكلني إلى نفسي ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ، فإنك إن وكلتني إلى نفسي أو أحد سواك فقد وكلتني إلى الهوان والضلال والعجز والهوى . قال ابن القيم رحمه الله : فيستشعر المنكسر لربه أنه كالإناء المرضوض الذي تدوسه الأقدام . ثم قال : وهذا الطريق سالكه قليل وهو أحب الأبواب إلى الله تعالى . وبالله التوفيق .

ثامناً : (مسئولية الدعوة إلى الله) إذا صح الإيمان . قام العبد بالدعوة إلى الله يبلغها وينشرها بما يستطيع بلسانه وقلمه وماله ودلالته وجاهه وتعليمه وتشجيعه وحضوره وخدمته ، والأبواب مفتوحة ، فهل من داخل ، ومن فضل الله وإحسانه إلينا أن جعل أبواب الدعوة إليه ليست خاصة بالعلماء والخطباء وأرباب البيان وفصاحة اللسان لا ، وإنما كل له أن يدعوا ويُذكّر ويأمر وينهى ويُعلم ويدل على الخير بما يقدر عليه ولا يشترط للداعية ان يبلغ مرتبة الاجتهاد أو الفتيا وإنما لابد أن يَعْلَمَ الشيء الذي يدعو إليه ويعرفه لقول النبي ﷺ : (بلغو عني ولو آية)[1] .

فبلغ عن ربك وادع إلى سبيله تكن من أشرف الخلق وأعزهم في الدنيا والآخرة وتقلّد أعظم وظيفة ألا وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].وقال ﷺ : (إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير)[3].

فما أعظم الفرصة أمام الصادق الذي يريد أن يلحق بركب المصلحين ، وأن يقول له الناس : جزاك الله خيراً ، لقد ذكرتنا بالله ونصحتنا لله ، وما أعظم الفرح الذي ينتاب قلب الداعية حين يُدعى له ، ويؤمن على دعائه حين يقول : اللهم

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٠٢) .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٣٣ .

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٠٩) وقال حديث حسن .

اغفر لنا وارحمنا ووالدينا وجميع المسلمين ، فهل يظن أن الله يخيب رجاء الصادقين وأمل المخبتين ، كلا فإن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين تحركوا لإعلاء كلمته والجهاد في سبيله .

ثم هل فكرت أيها المبارك في أن يدوم لك عمل صالح بعد مماتك في بقاء تعليمك ونصحك وأثرك على الناس فيما تنشره من خير فإن فضل الله عظيم حتى يجري لك ذلك العمل حتى تقوم الساعة .

وهل تخلصت من وساوس الشيطان ؟ وأوهام المُخذلين المتثاقلين حينما يزهدونك في الدعوة والدلالة عليها ويقولون : إن الناس معرضون ولست أهلاً للدعوة ، فلن ندخل مع هؤلاء المحرومين في نقاش ولكن كفانا كتابُ ربنا وسنة نبينا في أن الأجر والثواب ليس مشروطاً باستجابة الناس أو هداية قلوبهم ، لا بل هو مشروط بأن تدعو فقط صادقاً مخلصاً تريد الخير للناس ، فهذا أشرف الخلق أجمعين وإمامهم في الدعوة ليست له النتائج وأمور القلوب التي هي بيد علام الغيوب . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾(١).

وإذا عجز الشيطان عن أحد في تثبيطه عن الدعوة دعاه إلى الاقتصار والتحجيم ، وقال له : هذه قدرتك وإمكاناتك ، وضخّم في نفسه وعظّم ما يقوم به ليكتفي به ويقتصر عليه ، وهذه حيلة شيطانية وأسلوب ماكر ، وإلا فلو

(١) سورة القصص ، آية : ٥٦ .

استعملنا كل قدراتنا وإمكاناتنا لتحقق الخير الكثير وعم النفع وارتفع الجهل وقلّت الغفلة وتضاءل الشر ، وَلَمَا سوّد وجهَ الحياة كثرةُ الفجور والمعاصي ولصلحت الحال ورضي الله عنّا .

ولو تمعرت وجوهنا وحزنت قلوبنا وقمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لقل الشر وكثر الخير واستجاب الله دعاءنا وتيقظ الغافلون اللاهون .

ثم أليس من العيب والفضيحة أمام الله أن تكون الدعوة إليه لا تحظى منا إلا بفضول الأوقات والأموال والاهتمامات ، أليس ذلك مرده إلى ضعف اليقين وغلبة النفس وطغيان الدنيا في القلوب ، وإلا فإن الذي يريد أي شيء لابد أن يسعى جاداً في تحصيله ، فالذي يريد وجه الله وثوابه كيف يرجو ذلك – وهو المطلب الأعظم والغاية الكبيرة من خلق الإنسان – كيف يرجو هذا وهو المتثاقل المتفكه البارد في دعوته ؟! لأننا نرى أن من يريد بناء غرفة واحدة فإنه يجهد في ذلك ويلاحق أنفاسه في تكميلها وربما استدان لتجميلها وتزينها ، فكيف بمن يريد الجنة التي عرضها السموات والأرض ؟ وكيف بمن يريد أن يبني النفوس ويربي على الفضائل ؟ ألا يحتاج منه ذلك إلى البذل والجهد والعطاء .والوقت والاهتمام .

وهنا إليك يا صاحب الإيمان ويا من حركك الشوق والحنين إلى مرضاة ربك وتصحيح مسيرتك الإيمانية إليك هذه الوقفات في الدعوة إلى الله :

الأولى : بيِّت النية في التقرب إلى الله لتدعو إليه سبحانه لا لنفسك ورأيك وحزبك وفلان وفلان .قال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

الثانية : عليك بالاختصاص في أي درب من دروب الدعوة حتى لا تتفرق الهمة فتضعف الإرادة ، واجعل لك أصلاً هو الأساس في عملك الدعوي المُعيّن وما سواه يبقى فروعاً بالنسبة لك ، فتعاون معها فيما يسمح به وقتك وجهدك ، وكل ما يتعارض مع ذلك الأصل فاتركه حتى تُنتج فيه وتثمر الدعوة وتستطيع أن تفكر له ، وكثرة التردد فيه تجعلك أكثر خبرة وأحسن مهارة وأقدر عليه من غيرك الذي لم يتخصص له ، والنفس تريد التذوق وتهوى التغيير والتنقل ولكن الموضوع من أصله مجاهدة للنفس وبحثاً عن النافع المجدي بعد سؤال الله الإعانة.

الثالثة : كل مسلم صادق في دعوته منهجه الكتاب والسنة فهو على خير إن شاء الله وعلى ثغرة من ثغرات الإسلام ، ولا بد من تنوع الأساليب والطرق لكثرة الثغرات التي تتطلب عملاً ، فهذا في حيه وآخر في ميدان عمله وثالث في الخطابة وحاجات الناس ورابع مع المساكين وخامس هنا وسادس هناك .

وهكذا فلا يصح أبداً أن نُحجِّر على الناس ونسوقهم معنا فيما نراه أجدى أو أن نحتقر أدوارهم وجهودهم أو نلغي اهتماماتهم وقدراتهم فما يحسنه هذا لا يحسنه ذاك ، وما تراه أنت مهماً قد لا يراه الآخر كذلك ، وكلانا على خير إن شاء الله .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ .

ومن الخطأ أن نشعر أننا أضداد ويحصل بيننا التنافس المذموم والتزاحم إذا كنا صادقين لأننا نسعى للوصول لهدف واحد ، ومن العجب والكبر أن يعظم الواحد دوره وإنجازاته وينتقص أدوار الآخرين ، وهل يريد أن تكون الدعوة إلى الله سبحانه سبيلاً إلى بناء مجده الشخصي وسمعته ليشار إليه بالبنان .

الرابعة : الحذر من أن تتحول الدعوة إلى الله إلى مصاولات وانتقادات وتجريح وتفريق وإسقاط للآخرين ، فحينئذٍ تكون الدعوة سعياً للإفساد وشتات القلوب وانطوائها على الغل والحسد والفرقة والاختلاف والأصل أن تكون الدعوة للإصلاح وجمع الكلمة ووحدة الصف ، وأما العيوب والمآخذ والأخطاء فهي مصاحبة للبشر لا يستطيع أحد أن ينفك عنها مهما كان إلا الأنبياء والمرسلين المعصومين .

ولعلاجها وتلافيها طرق واضحة في الشرع يبعد أن يجهلها من يدعو إلى الله إلا صاحب الهوى والظنون السيئة ، ولا يستطيع أحد أن يسلم من الخطأ سواء في أسلوبه أو فهمه أو اجتهاده ، وسواء في بيته أو وظيفته أو دعوته أو تعامله مع جيرانه ورفقائه ومع الناس أجمعين ، فإذا أردنا أن نسقط ونجرح ونعيب من وقع في خطأ فمن سيبقى لنا إذاً .

وهل يصح أن نطلب من إنسان أن يكون كاملاً في كل شيء ، ومن هو ذاك الكامل المطالب بالكمال ، فيجب أن تكون مساعي الدعوة ودروبها يكمل بعضها بعضاً ، ويسد أحدنا ما تركه الآخر ، وأن نجعل حسن الظن هو الأصل في كل ما صدر من تقصير أو خطأ من داعية على الكتاب والسنة فنحمله على حسن الظن ،

وعلى أحسن المحامل وإذا لم نجد له عذراً قلنا : لعل له عذراً لم نعلمه ، وهو منهج شرعي لأن قلوب الناس ونياتهم ليس من شأننا التنقيب عنها وإساءة الظن بها ، وأما موارد الاجتهاد التي للاجتهاد والرأي فيها مجال ، فلا يجوز لنا شرعاً أن نحتكر آراءنا لتكون هي الصواب فقط وما عداها مرفوض وهذا من ضيق الأفق وقصور العلم أن نتحجر على آرائنا ونتعصب لها ونوالي ونعادي عليها ونجعلها هي المعيار في الحكم على الآخرين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : (ومن نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل إتباع المشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم ، فينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به ، فهذا زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن ، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله بها ورسوله لكون ذلك طاعة لهما)[1].

---

(١) الفتاوى . ج ٢٠ ، ص ٨، ٩ .

الخامسة : استشعر المسؤولية في حمل هم الدعوة وتكاليف أعبائها واجعلها هي وظيفتك الأولى التي عليها تصبح ، وعليها تمسي بحيث تسري في روحك وسويداء قلبك لتكون هدفك الأول والأخير لتلقى الله وأنت تدعو إليه وتدل على سبيله ، وبهذا تسهل عليك الدعوة ولا تجد فيها ثقلاً ولا حرجاً ، لأنك صبّرت نفسك عليها فاستسغتها وشربت مرها فاعتدته ، وهذا بخلاف من يجعل دعوته تبعاً للمناسبات فإن سنحت فرصة شارك أو دُعي أحياناً لعمل خيري ، فمرة يعتذر ومرة يجيب ، ويريد أن يظل دائماً محمولاً ومُتابعاً ومُساقاً تحت الضغوط فيظل هذا النوع لم يلبس لباس الدعوة ولم يشربها لتكون هي حياته ومحط آماله وآلامه بحيث يستغل المناسبات ولا تستغله ويستغل وظيفته ودنياه وعلاقاته لتكون وسائل للدعوة لا أن تكون أسباباً لانشغاله عنها .ومن أخذ الدعوة بصدق لم يشعر بمشقتها . قيل للشيخ العلامة عبد العزيز بن باز : يا شيخ ألا تتعب ألا تستريح ألا تمل ؟ فقال : لا . فقيل له :لماذا ؟ فقال : (إذا استراحت الروح لم يتعب البدن) وهذا الداعية المجاهد سيد قطب رحمه الله يسطر هذه الكلمات فيقول : (الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بها تبذل ، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه ، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه ، فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله ، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله لا المنَّ ولا الاستكثار)[1] .

---

(١) في ظلال القرآن (سورة المدثر ٦ – ٣٧٥٥)

السادسة : تفطّن – أخي الداعية – لمخدورين كبيرين . أحدهما : اليأس الذي يدعوك إلى القعود والاستثقال ثم الغفلة والركون إلى الدنيا وشهواتها . وهو من مكائد الشيطان وحيل النفس لتبرير القعود . وداوِ هذا الداء بلباس الأمل وحسن الظن وواسع الرجاء والعلم بأن نداء الفطرة ساكن في قلب كل مخلوق فتحتاج هذه الفطرة إلى دلالة وثقة ومحبة وإيثار وإخوة صادقة وأمان ثم تستجيب إما مباشرة أو تدريجياً وإن لم تستجب فأجرك – أخي – ثابت وجهدك محفوظ عند الكريم الرحمن .

والمخدور الثاني : هو داء العجب فحينها يرى الداعية إقبال الناس عليه وإبصارهم إليه شاخصة وآذانهم له سامعه وقلوبهم ساكنة متأثرة وهم من حوله يستشيرونه وله مطيعون ولحوائجه يقضون وربها كانوا كثيرين وهنا على العبد المسكين أن يحترس من أن يتسلل إلى قلبه داء العجب والنظر إلى نفسه وما حققت من منجزات وجدارة ومكانة وعلم وميزات .. فينسب ذلك إلى نفسه ومقدرته عياذاً بالله تعالى والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ودواء ذلك بكثرة شكر الله وحمده والثناء عليه ونسبته إلى الله المنعم المتفضل والعبد ليس منه شيء البته لا قليل ولا كثير ولا ظاهر ولا خفي . فالذي أعطاك العلم والفهم واللسان والقدرة والذي مكنك في الدعوة وساق إليك الناس ووثقوا وأعجبوا فيك هو الله وحده . فاشكر ربك على هذه المنزلة والعلم وقم بزكاة ذلك وجاهد نفسك وقد كان الإمام أحمد رحمه الله يخاف على نفسه لما اشتهر وبعدُ صيته .

ولقد جمع الله تعالى لبنيه الحالتين ، حالة إدبار الناس عنه وإيذائهم له وسبه ورميه بالحجارة ومقاطعته وطرده والإعراض عنه واتهامه فخرج مهموماً حتى وصل إلى قرن الثعالب فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام فقال له : إن الله قد سمع قول قومك له وإن الله سيرسل إليك ملك الجبال فقال له ملك الجبال : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلين في مكة) فقال النبي ﷺ : لا . إني أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده . فبقي النبي صابراً شاقاً طريق الدعوة بثبات وفأل مستعيناً بربه قوي الرجاء فيه . ثم ذهب إلى الطائف وبادروه بالتكذيب والاهانة وأغروا به سفهاءهم حتى رموه بالحجارة ولم يستجب له إلا عداس من أهل (نينوى) بالعراق وهو من أتباع نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ذلك النبي الكريم الذي فرّ من قومه مغاضباً لما أعرضوا عنه فالتقمه الحوت فلجأ إلى ربه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . وفي لقاء النبي ﷺ مع عداس تذكير له بحال نبي الله يونس عليه السلام لما فر مغاضباً لقومه . ثم تاب فتاب الله عليه .

والحالة الثانية : حال إقبال الناس عليه في فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً وتتابع الانتصارات واكتمال الدين وعلو دولة الإسلام ، فبقي النبي ﷺ متواضعاً لربه موصول القلب فيه ودخل مكة فاتحاً مطأطيء الرأس تواضعاً لربه مسبحاً بحمده مستجيباً لربه تبارك وتعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ .

تاسعاً : (التجرد في طلب الحق) إذا صح الإيمان وتجرد قلب العبد لربه تحرى الحق والعدل والإنصاف وتجنب الكذب والمداهنة والمماراة والتلون والأساليب الملتوية، وصار واضحاً وصريحاً لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلم يستنكف عن الرجوع عن الخطأ بل يقول بملء فيه أخطأت وأستغفر الله ، وهكذا شأن المؤمن فإنه يحتقر نفسه ويتهمها ويظن فيها كل سوء ، فهي محل الضعف والهوى وطلب الشهرة والنقص والشهوة مع إحسانه الظن بالآخرين وتقدير آرائهم والتأدب معهم ، فيكون الحق رائدة والعدل إمامه ، وما تشعبت بنا السبل وما ضحك علينا الأعداء وضاعت هيبتنا وعشعش الشيطان في قلوبنا إلا بسبب أنفسنا التي غزاها الكبر وأفسدها العلو .

وما كثر الخلاف وصنفت الردود الكثيرة في النقد والتجريح إلا بسبب الأهواء وعدم الإنصاف وما ساءت الأحوال ولا تداعت علينا الأمم من قلة ، ولكن السبب الغثائية وعدم صفاء النفوس وعدم طهارة القلوب قال رسول الله ﷺ : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .قال قائل ومن : قلة نحن يومئذٍ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)(١) لأن أسباب الضعف في أي أمة ليست بسبب قوة أعدائها وكثرتهم ، لا إنما الأسباب داخلية في النفوس والقلوب التي متى ما صدقت وطهرت وصبرت واتقت ربها كتب الله لها الفلاح والنصر والتمكين

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٧٤٥) .

وصلاح الحال، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(١). وقال تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾(٢).

وإليك – أخي الحبيب – صورة معبرة واقعية حدثت على عهد الرسول ﷺ بينه وبين صحابته الكرام.

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾(٣). وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام صاروا إخواناً متحابين بجلال الله متواصلين في الله متعاونين على البر والتقوى، ثم قال: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(٤).

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى

(١) سورة آل عمران، آ: ١٢٠.
(٢) سورة محمد، آ: ٢١.
(٣) سورة آل عمران، آ:
(٤) سورة آل عمران، آ:

الحرة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول : (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم ، وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تناوروا في قضية الإفك والله أعلم) [1].

فتأمل حال الرسول ﷺ المربي الذي خاف واشتدت كربته عندما كان الخلل والانشطار من الداخل ، ثم تأمل يوم الأحزاب عندما علم الرسول ﷺ أن اليهود غدروا ونقضوا عهدهم وتحالفوا مع قريش في وقت عصيب تألبت فيه الدنيا وأحاطت بالمدينة واشتدت بالمؤمنين الكروب ، ففي هذا الوقت قال النبي ﷺ : (أبشروا بالنصر) لماذا ؟ لأن الخلل والمصيبة والكربة من الخارج . هول الأعداء وتآمرهم لا ضعف النفوس والقلوب ، فإذا صلحت القلوب مع ربها وعاش المؤمنون أصفياء فلا يضيرهم مكر عدوهم وقوته .

وكلما كان العبد مقيماً لحظ نفسه طالباً لإثبات رأيه وذاته ومقدماً شهوة ترأسه ملتفتاً إلى ما يزينه عند الناس متظاهراً بسداد الرأي ورجاحة العقل وطلاقة اللسان ، فكلما كان طالباً لذلك كان أبعد عن الإخلاص وأقر ب إلى الرياء والسمعة وأبعد عن معالجة قلبه وعن النظر في دائه ودوائه ، والموفق هو من كان عن حظ نفسه أبعد ولرأيه أحقر ، فأبعد هواه ورجع للحق الذي قال بخلافه ، وآثر إخوانه بالكلام والمخلص لا يرى لنفسه مقاماً بل يرى أن كل مسلم هو أفضل منه دائماً شغله الشاغل مراقبة هذا

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٥ (دار الأندلس) .

القلب والخوف من شموخ النفس وكبريائها ومرادها ، قيل إن الخشوع : هو الانقياد للحق ، وعلامة ذلك أن يستقبل العبد النصيحة فيما خولف فيه بالقبول والانقياد [١].

فنجد في معاملاتنا مع إخواننا وأهلينا وزملائنا الشيء العجيب المنتشر بسبب أهواء النفوس والبعد عن العدل والإنصاف ، فمن أجل ألا يقول الشخص أخطأت يظل يحاور ويدور ويعادي ويسيء الظن بالآخرين بل ويكذب من أجل ألا يعترف بخطئه أو بما قال ، فانظر إلى ضعف الإيمان وقلة الخوف من الرحمن كيف يصل الحال فينا إلى أن نعصي الله ونفسد ذات البين من أجل حظ النفس وكبريائها .

---

(١) شرح الأسباب العشر ، لعبد العزيز مصطفى ص ١١٨ .

عاشراً : (القيام بحقيقة الصلاة) إذا صح الإيمان استقبل العبد صلاته وعمود دينه بأدب العبودية بين يدي الله خاشعاً متذللاً مستشعراً هذا الموقف الكريم العزيز بين يدي العظيم جل جلاله بحيث لا ينصرف بقلبه إلى سواه ، فيظل جامعاً فكره وهمه إليه واقفاً صافاً قدميه وقوف المستجير المسكين المنكسر يناجي ربه ويعظمه ويستغفره من أعماق قلبه طامعاً في فضله وإنعامه راجياً وخائفاً ومنزلاً حوائجه فيه ومشتغلاً به عمن سواه ، صارفاً قلبه ونظره عن الدنيا وما عليها مُعاركاً لهذه النفس وصابراً ومصابراً ومجاهداً لها حتى لا تلتفت به عن مولاه وخالقه العظيم ، فهو يريد أن لا ينصرف عنه ربُّه ، وينتقل في هذه الصلاة من رياض إلى رياض من قراءة كلام ربه مع تدبره إلى تعظيمه بالتسبيح إلى دعائه بالسجود إلى سؤاله المغفرة إلى الاستعاذة به من كل سوء ومكروه .

فما أعظم الموقف ، وما أجل الموقوف له عندما يقبل العبد بقلبه وجوارحه على ربه يرجوه ويستعطفه بروح المذنب الذليل الفقير المستعين الذي تعرض للفتنة والابتلاء والامتحان . في كل يوم يسأل مولاه أن يحفظه ويرعاه ويثبته ويتقبل منه ، وأن يهديه ويوفقه ويفتح على قلبه ، فإن قَبِلَه ظفر بالفوز والفلاح ، وإن رده فما أعظم الخسران وما أمرّ الحرمان . قيل الخشوع : قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ، وقيل الخشوع : خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدر وإشراق نور التعظيم في القلب) .

فبالخشوع والتدبر تكون الصلاة قرة العيون ونور الصدور والوجوه . قال الرسول ﷺ : (وجعلت قرة عيني في الصلاة) (١)، وبالصلاة الخلاص من كل بلية وفحشاء ومنكر: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾(٢). وبالصلاة الحقيقية تصلح بقية الأعمال وتقبل عند الله ، وبفسادها فساد الأعمال ، وبالصلاة حلاوة المناجاة حيث يترقى العبد في مراقي العبودية ويعرف ربه ويتلذذ بمناجاته فيشعر بالحلاوة واللذة التي لا يعرفها الغافلون وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر إلى قدر الصلاة عندك وما نصيبك منها ، فهي الصلة بين العبد وربه ، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإسلام ، وهي خمس صلوات بأجر خمسين ، وهي التي فرضت من فوق سبع سموات بين الرب عز وجل ونبينا محمد ﷺ بلا واسطة ، وهي التي من حافظ عليها فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، وهي آخر ما وصى بها الرسول ﷺ أمته فقال : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) (٣) وقال ﷺ: (إن العبد إذا قام يصلي أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقيه فكلما ركع أو سجد تساقطت) (٤).

فما بالنا غافلين عن روح الصلاة وحقيقتها ، نؤديها بجوارحنا مع ذهول القلب وغفلته ، ومن ثم أصبحت الصلاة غير مؤثرة على سلوك المصلي ، فلا تحمل الخشوع

---

(١) سنن النسائي (٣٨٧٩) .
(٢) سورة العنكبوت ، آ : ٤٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد (٢٥٢٧٨) .
(٤) رواه الطبراني صحيح الجامع ج : ١ برقم (٢٥٥١) .

وحضور القلب والتأثر ، كان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه ، فقيل له : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ، قال : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم [١]. وقال حذيفة رضي الله عنه : إياكم وخشوع النفاق ، فقيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع .

وذكر ابن القيم رحمه الله : أن للخشوع الصادق ثلاث درجات هي :

١- التذلل لأمر الله : بأن يتلقاه العبد بذلة الانقياد والقبول والامتثال مع إظهار الافتقار إلى الهداية قبل فعله والإعانة عليه حال فعله . ورجاء قبوله بعد فعله ، وسؤال الله الثبات عليه حتى الممات .

٢- ترقب آفات النفس والعمل وتوقع ظهورها ، والخوف على العمل من هذه الآفات، من كبر أو عجب أو رياء ، أو ضعف في الصدق وقلة في اليقين وتشتت في النية ، والحذر من رؤية فضل النفس على الناس بل ينسب الفضل كله لله .

٣- أن يضبط نفسه عن الإدلال على الله بالعمل ، أو الظن بأن لها على الله حقاً ، مع حرصه على ألا يرى الخلق أحواله مع الخالق ، لئلا يعجبه اطلاعهم ، فيفسد ذلك عليه قلبه ونيته وحاله [٢].

(والخشوع أثناء الصلاة لا ينفك عن خشوع القلب خارجها ، أما أن يكون المرء غافلاً طوال الأوقات ويريد أن يكون خاشعاً في الصلوات فهيهات هيهات) [٣].

(١) شرح الأسباب العشر . ص : ١١٩ .
(٢) شرح الأسباب العشر . ص : ١١٢
(٣) شرح الأسباب العشر . ص : ١٢٢ .

ومما يعين على الخشوع في الصلاة أمور منها :

١- العناية بالوضوء وإسباغه ، واستشعار التعبد فيه ، وإحضار القلب معه ، وطلب الثواب في تساقط قطرات الماء من الأعضاء ،لأن الذنوب تتساقط معها .

٢- التبكير إلى المسجد ، والتنفل قبل الفريضة ، وقراءة القرآن وذكر الله واستغفاره ، لتهدأ النفس وتنقطع عن مشاغل الدنيا ، وتقبل على الصلاة بعد الجلوس في المسجد ، بخلاف المتأخر الذي جاء مباشرة من مشاغله ، فدخل في الصلاة .

٣- استشعار عظمة الله عند تكبيرة الإحرام (الله أكبر) وتدبر حقيقتها ، ومطابقة ما تقول لما تحمل في قلبك ، ذلك أن الله أكبر من كل شيء ، فلتعظم الله ، ولا يشغلك عنه ما هو دونه .

٤- تدبر معاني ما تقول في صلاتك من آيات تقرأها أو تسبيح أو دعاء وكل ما تقول فيها ، ليحصل التأمل والاعتبار وانشغال القلب بتلك المعاني .

٥- صلِّ صلاة المودع الذي لا يدري هل يصلي صلاة بعدها أم لا ، لأن لحظات الوداع غالية وخصوصاً الصلاة إذا استشعرنا فراقها .

٦- حافظ على صلاة الجماعة فهي واجبة ، والدخول مع المصلين في الصلاة استدعاء للرحمة التي تشمل المصلين ، فهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم ، لأنهم في أعظم ذكر وخصوصاً صلاة الفجر فإنها صلاة تشهدها الملائكة وحضورها يدل على الصدق مع الله ، حيث رفض المصلي فراشه وشهوة نومه وهب ملبياً يمشي في الظلم إلى المسجد بخلاف حال المنافق الذي استثقلها . تلك الصلاة العظيمة التي

فرط فيها أكثر المسلمين ، فإنها والله الرزية كل الرزية ، وكيف يرجو ذلك المفرط الذي لا يصليها إلا إذا قام لعمله ، كيف يرجو خيراً ولذة في الصلاة ، وهل يريد أن تكون صلاته هذه مطهرة له من الفحشاء والمنكر ، وهو بهذه الحال .

٧- بعد الانصراف من الصلاة لابد من المحاسبة ، هل حصل الخشوع فيها أم لا ؟ فإذا لم يحصل بسبب الذهول عنها فلابد من لوم النفس والندم على التفريط ، ولابد من تعزية القلب على الخسارة التي هي أعظم من خسارة المال .

٨- حافظ على النوافل الرواتب وغير الرواتب لأن النوافل تسدد النقص الحاصل في فريضة الصلاة لقول النبي ﷺ : (من صلى صلاة لم يتمها زيد عليها من سبحاته حتى تتم)[1] رواه الطبراني .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (ينبغي للمصلي أن يُحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة ، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة ، ويشمر للإجابة ، وأن ينظر ماذا يجيب ، وبأي بدن يحضر ، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق ، ويكفرها الندم والخوف والحياء ، وإذا استقبل القبلة بوجهه فصرفُ قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك .

وإذا كبّرت أيها المصلي فلا يكذّبنَّ قلبك لسانك ، لأنه لو كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت ، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى فإذا استعذت فاعلم أن الاستعاذة هي ملجأ إلى الله سبحانه ، فإذا لم تلجأ

---

(١) برقم (١٤٤٦٥) صحيح الجامع . ج : ٥ ، ٦ ، ص ٣١٤ برقم (١١٢٩٤) .

بقلبك كان كلامك لغواً ، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ ، واستحضر لطفه عند قولك : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾وعظمته عند قولك : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ ، واستشعر في ركوعك التواضع ، وفي سجودك الذل، لأنك وضعت النفس موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه ، واعلم أن أداء الصلاة بهذه الشروط سبب لجلاء القلب من الصدأ ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود ، وتطلع على أسراره ، وما يعقلها إلا العالمون ، فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها ، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك ، بل ينكر وجوده [1].

---

(١) شرح الأسباب العشر . عبد العزيز مصطفى . ص ١٢٤ باختصار .

الحادي عشر : (تعظيم الله عز وجل) إذا صح الإيمان عظَّم العبد ربه وتعامل معه معاملة الصادق الهيّاب الوجل الذي يعظم أمره ونهيه ، ويشهد منته عليه وأنه بالله لا بنفسه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] . فهو العظيم سبحانه الذي لا أعظم منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، العليم الذي يعلم السر والخفيات ، السميع الذي وسع سمعه الأصوات ، البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات .

قال ابن القيم رحمه الله : (يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى ويخلق ويرزق ويميت ويحيى ويقضي وينفذ ويعز ويذل ويقلب الليل والنهار ويداول الأيام بين الناس .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعدٍ إليه بالأمر ونازلٍ من عنده ، وأوامره على تعاقب الليل والنهار نافذة بإرادته ومشيئته ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء ، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية ، يعلم السر وأخفى ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[2] يغفر ذنباً ويفرج هماً ، ويكشف كرباً ، ويجبر كسيراً ، ويغيث لهفان ، ويفك عانياً ، ويشبع جائعاً ،

---

(١) سورة النحل ، آية : ٥٣ .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٩ .

ويكسو عارياً ، ويشفي مريضاً ، ويعافي مبتلى ، ويقبل تائباً ، ويجزي محسناً ، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ، ويرفع أقواماً ويضع آخرين ، لا ينام سبحانه ، ولا ينبغي له أن ينام ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، يقبض سمواته كلها بيمينه الكريمة ، والأرض بيده الأخرى ، ثم يهزهنَّ ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون .

قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [١].

فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها ، لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلاً منهم مسألته ، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها أقلام والبحر كله ووراءه سبعة أبحر تمده فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفد المداد ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى [٢] .

فما أعظم الله وأجل سلطانه ! وما أحوج القلوب لتتذكر عظمة الله وهيمنته وآلاءه في الكون والنفوس ، وما أفقر القلب لاستشعار أسماء الرب جل جلاله ،

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٧ .

(٢) الوابل الصيب ص : ١٣٤ .

وتأمل نعوته وصفاته ، ليتعبد لربه بمقتضاها ، فإذا أشرقت على القلب أنوار أسمائه وصفاته اضمحل عنها كل بلاء من شهوة أو شبهة أو بلية ، وتعلق بالله محبة وخوفاً ورجاءً ، وإذا ذكر العبد ربه بقلبه ولسانه معظماً إياه هانت عليه هذه الدنيا بزخارفها وصغرت عنده مشاكلها وهمومها ، وانقطع رجاؤه من المخلوقين ، وأقبل على ربه إقبال الفرحين بالعبادة سعيداً ملتذاً بها ، تغمر قلبه الفرحة قبل العبادة وأثناءها وبعدها ، وإذا عظم العبد ربه وهبه الشكر عند النعمة ، ووهبه الرضا والصبر والاحتساب عند الفقر والمرض والمصيبة ، فإن أعطى شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر .

وعلى حسب تعظيم العبد لربه ، وإشراق الإيمان في قلبه تخرج أعماله وأقواله ونياته ، والموفق هو من رفع الله من لسانه وقلبه رؤية عمله ونفسه ، بل هو مستحي من ربه بسبب أعماله ، وناظرٌ بعين البصيرة إلى فضل الله وإحسانه ، وأن كل ما به من نعمة فهي من الله ، فكيف يعجب بنفسه ؟ قال الشاعر :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً * عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف أقوم الدهر في بعض حقه * وإن طالت الأيام واتصل العمر

وينظر من عظم ربه إلى دنياه وهو يتقلب فيها بين الفتن والمخاوف والمغريات ، لا يأمن على نفسه حيث الهوى والنفس والشيطان فتنزل بقلبه الضرورة إلى ربه ليثبته ويعينه ويحسن خاتمته ويتوفاه غير مفتون ، وناظرٌ بعين البصيرة إلى ما أمامه من شدائد وأهوال ، فهو إلى القبر إما روضة من رياض الجنة

أو حفرة من حفر النار ثم إلى يوم العرض الأكبر يوم الحشر والنشور يوم الحسرات يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم التغابن يوم تتبرأ كل نفس ممن حولها: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

يوم الأهوال والفجائع يوم الطامة والصاخة والقارعة والزلزلة، يوم يسأل العليم الخبير جل جلاله الصادقين عن صدقهم فكيف بالغافلين المضيعين؟! يوم يأتي الرب عز وجل لفصل القضاء بين الخلائق، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

وإذا صح الإيمان عظَّم العبد ربه بتحقيق التوحيد، وذلك بتنقيته من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع والمعاصي الكبيرة والصغيرة، وهذا يوجب على العبد أن يحترز من كل ما يبطل عمله أو ينقصه بأن يتبع ولا يبتدع، ويمتثل ولا يخالف، ويسلم وينقاد، وألا يقع في قلبه شيءٌ من حرج أو ريبة مما أمر الله به أو نهى عنه. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[4].

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٠.
(٢) سورة الطارق، آية: ١٠.
(٣) سورة غافر، آية: ١٨ – ١٩.
(٤) سورة النساء، آية: ٦٥.

الثاني عشر : (إلى دار المتقين) إذا صح الإيمان تعلق القلب بالجنة يسرح النظر فيها بين أملاكها وقصورها وحورها وولدانها وأنهارها وفواكهها ، وما أعظم ما فيها وهو رؤية الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه ، فكل شيء تراه في هذا الدنيا ويعجبك بعظمته وجماله وتمامه ، ويسترعي نظرك ويشد انتباهك ، فاعلم أن في الجنة ما هو أعظم منه وأجلّ .

قال ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح : (وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة ، إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفداً ، وسيق المجرمون إلى جهنم ورداً ، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد ، ليعلم أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد ، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام ، وادخر لهم من الفضل والإنعام ، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ، لعلم أي بضاعة أضاع ، وأنه لا خير له في حياته ، وهو معدود من سقط المتاع ، وعلم أن القوم توسطوا ملكاً كبيراً لا تعتريه الآفات ، ولا يلحقه الزوال ، وفازوا بالنعيم المقيم ، في جوار الكبير المتعال ، فهم في روضات الجنات يتقلبون وعلى أسِرَّتها يتنعمون ، وبأنواع الثمار يتفكهون ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأنت فيها خالدون .

فوا عجباً لها كيف نام طالبها ! وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها ! وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ! وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها! وكيف قرت دونها أعين المشتاقين ! وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين ! وكيف صُدِفَتْ عنها قلوب أكثر العالمين ! وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟

فيا عجباً من سفيه في صورة حليم ، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس ، وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات ، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها البوار والخراب ، وأبكاراً عرباً أتراباً كأنهن الياقوت والمرجان بقَذِرات دِنسات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان ، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم ، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف من الغناء والألحان ، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد .

ونادى المنادي يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا وتحيوا فلا تموتوا ، وتقيموا فلا تظعنوا ، وتشبوا فلا تهرموا)[١] .

فهل يتذكر المؤمن إذا تطلعت نفسه إلى النساء والصور ، هل يتذكر حور الجنة التي لو اطلعت الواحدة منهن على الأرض لملأت ما بين السماء والأرض ريحاً ،

---

(١) حادي الأرواح ، ص ١١ .

ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، وهل نتذكر إذا رأينا قصور الدنيا وفخامتها ، هل نتذكر بأن أدنى أهل الجنة منزلة ، من يعطى مثل الدنيا وعشرة أمثالها .

قال ابن القيم رحمه الله في الميمية :

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها * ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فإنها * منازلك الأولى وفيها المخيم
وحي على روضاتها وخيامها * وحي على عيش بها ليس يسأم
وحي على يوم المزيد فإنه * لموعد أهل الحب حين يكرموا
وحي على وادٍ هنالك أفيح * منابر من نور لمن هو مكرم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد * لمن دونهم هذا العطاء المفخم
يرون بها الرحمن جل جلاله * كرؤية بدر التم لا يتوهم
أو الشمس صحواً ليس من دون أفقها * سحابٌ ولا غيم هناك يغيم
فبينا همو في عيشهم وسرورهم * وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بربهم من فوقهم قائل لهم * سلامٌ عليكم طبتم ونعمتموا
فبالله ما عذر امرىءٍ هو مؤمنٌ * بهذا ولا يسعى له ويقدم
فقدم فدتك النفس نفسك إنها * هي الثمن المبذول حين تسلم
فما ظفرت بالوصل نفسٌ مهينةٌ * ولا فاز عبد بالبطالة ينعم
فدعها وسل الطرف عنها بجنةٍ * من العلم في روضاتها الحق يبسم

ولله بــرد العــيش بــين خيامهــا * وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله أفـــراح المحبـــين عنـــدما * يخــاطبهم مــن فــوقهم ويــسلم
ولله كــم مــن خــيرة إن تبــسمت * أضــاء لهــا نــور مــن الفجــر أعظــم
فيالــذة الأبــصار إن هــي أقبلــت * ويالـــذة الأســـماع حـــين تكلـــم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت * ويــا خجلــة الفجــرين حــين تبــسم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبـاً * فهــذا زمــان المهــر فهــو المقــدم

الثالث عشر : (تدبر القرآن الكريم) إذا صح إيمان المؤمن تدبر كتاب ربه وأنزله المنزلة العظيمة التي تليق به ، واستشعر عظمته وتدبره واقفاً عند عجائبه وحدوده وتذوق حلاوته ، وتعبد لله بترديده قراءة وحفظاً وترتيلاً ومعرفة لما تدل عليه آياته العظيمة ، ومراميه العجيبة ، قال الحسن بن علي رضي الله عنه : (إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار) .

(إنه لشيء عظيم وكبير أن يخصنا الإله الكبير المتعال مالك الملك سبحانه بخطابه وكلامه ، ويخصنا بشرف التحدث إليه ومناجاته . قال ابن الصلاح : قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر ، وقال ابن القيم رحمه الله : (فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن ، وجمع الفكر على معاني آياته ، فإنها تطلع العبد على معالم الشر والخير بحذافيرها ، ومآل أهلها ، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة ، والعلوم النافعة ، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه ، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصّره مواقع العبر ، وترشده عدل الله وفضله وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ، وتعرفه قواطع الطريق وآفاتها والنفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها) [1].

إن تدبر القرآن يعالج أمراض القلوب ويطهرها من أوضارها ، ويجيب على الشبهات ويرد النزغات ويطفيء نيران الشهوات ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

---

(١) شرح الأسباب العشر ، عبد العزيز مصطفى .

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١). قال القرطبي رحمه الله : دلت هذه الآية : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢) دلت على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه ، إ· بركة هذا القرآن مودعة فيه كالكنوز ، لا يستخرجها إلا المتدبرون ، ولا يعرف حلاوتها إلا من عظموا كلام ربهم وأنزلوه في قلوبهم مخلصين خاشعين عاملين متذكرين لقيمته ومنزلته العظيمة .

قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣) وقد قام النبي ﷺ بآية يرددها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٤).

قال بشر بن السرى : إنما الآية مثل التمرة كلما مضغتها استخرجت حلاوتها ، ومن أحسن صحبة القرآن فإن القرآن يصحبه حتى يقوده إلى الجنة في درجاتها العالية ، قال رسول الله ﷺ : (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها) (٥).

وبقدر ما يعظم في قلبك كلام الله وأوامره ونواهيه ، بقدر ما تنال الكرامة عند الله. قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس

---

(١) سورة يونس ، آية : ٥٧ .

(٢) سورة محمد ، آ· : ٢٤ .

(٣) سورة ص ، آية : ٢٩ .

(٤) سورة المائدة ، آ· : ١١٨ .

(٥) رواه أبو داود برقم (١٢٥٢) وصححه الألباني .

نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يختالون)[١].

واستمع يا صاحب الإيمان إلى توجيه ابن القيم العالم الرباني إذا أردت الانتفاع بالقرآن حيث يقول : (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ . قال تعالى :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [٢]، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكير .

قال ﷺ : (إن الله يرفع بهذا القرآن أقواما ويضع به آخرين)[٣].

وقال ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٤].

وعليك أن تتأدب أيها المؤمن بآداب القرآن وتتزين بها ، (فمنها الإخلاص في القراءة واستحضار مناجاة الله ، وتنظيف الفم بالسواك ، والقراءة على طهارة ، وأن يكون مكان القراءة نظيفاً ، والجلوس مستقبل القبلة جلوساً بخشوع وأدب وسكينة ووقار واستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والمحافظة على قراءة بسم الله

(١) شرح الأسباب العشر ص ٢٢ .

(٢) سورة ق ، آية : ٣٧ .

(٣) رواه مسلم برقم (١٣٥٣) .

(٤) رواه البخاري برقم (٤٦٣٩) .

الرحمن الرحيم ، واستجماع الهمة للخشوع والتدبر واستشعار خوف الله والخشية منه ، فعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً أن النبي ﷺ قال : (إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله) [١].

وأجمع العلماء على استحباب ترتيل القرآن الكريم لقوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [٢]. قال ﷺ : (إن لله عز وجل أهلين من الناس) قيل : من هم يا رسول الله : قال : (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته) [٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله) [٤].

وهنا فائدة كبيرة : وهي أن تدبر القرآن ليس خاصاً بطلاب العلم والمتخصصين بل إن التدبر نعمة مبذولة لكل مسلم – لأن أغلب القرآن العظيم واضح المعاني . أليس أكثره عن أسماء الله وصفاته والجنة والنار وقصص الناجين والهالكين ومشاهد القيامة والوعد والوعيد .فكل هذا وأمثاله مما هو معروف عند كل قارىء للقرآن . فما عليك إلا أن تحضر قلبك وتجتهد في تحصيل نعمة التدبر حتى تنتفع بالقرآن . واحذر من الحرمان من هذه النعمة بدعوى الجهل ، لأن الله تعالى عاب على المشركين عدم تدبر القرآن . فعوام المسلمين أولى بالتدبر من

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني برقم (١٣٢٩) .

(٢) سورة المزمل ، آ : ٤ .

(٣) رواه ابن ماجه برقم (٢١١) وأحمد برقم (١١٨٣١) وصححه الألباني برقم (٣٩٢٨) .

(٤) رواه البيهقي والخطيب البغدادي . صحيح الجامع برقم (١٩٤) .

المشركين الذين قال الله في حقهم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ واعلم – أخي قارىء القرآن – أن لك أهدافاً من قراءة القرآن سوى ثواب القراءة . ومنها زيادة الإيمان وأخذ العبر وتعظيم الله تعالى والامتثال بالعمل والعلم والمناجاة وغير ذلك .

الرابع عشر : (الرضا بالقضاء والقدر) إذا صح الإيمان رضي المؤمن بقضاء الله وقدره وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .قال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (١). وقال عز وجل : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (٢) . قال علقمة : (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم) .

فإذا حصل اليقين بهذا علم العبد أن اختيار الله له أنفع له من اختياره لنفسه ، فاستقبل حياته بالرضا والاطمئنان ، واحتسب صابراً على بلوائه ، شاكراً على سرائه، يعلم بيقين قوله الرسول ﷺ : (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) (٣) .

فيظل المؤمن معلق القلب بربه مع كل حدث في هذا الكون عالماً بيقين أنه ما من هباءة ولا ذرة ولا حركة ولا سكون إلا وهي كائنة بقضاء الله وقدره ، فحينئذٍ تنزل على قلبه السكينة في رزقه وأجله وفي كل ما يواجهه من خطوب ، فيتحرك في هذه الدنيا متوكلاً على ربه قائماً بأمره مجاهداً في سبيله ،لا تأخذه في الله لومة لائم ، يعلم أن الخلق لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا موتاً ولا رزقاً ولا فقراً ، ويعلم أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام ، وأنه لا شيء يعدله ، وأن

---

(١) سورة القمر ، آ : ٤٩ .

(٢) سورة التغابن ، آ : ١١ .

(٣) رواه مسلم برقم (٥٣١٨) .

الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، ويعلم كذلك أن الجهاد لا يقدم أجله ، وأن القعود والجبن والدعة والهون والركون إلى الدنيا لا يزيد في عمره .

قال علي رضي الله عنه :

أي يــوميَّ مــن المــوت أفــر * يــوم لا قــدر أم يــوم قــدر
يــوم لا قــدر لا أرهبــه * ومــن المقــدور لا ينجــو الحــذر

وقال عمر رضي الله عنه : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر . قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١).

ولكننا اليوم لضعف إيماننا وقلة يقيننا ركنًا إلى الأسباب فأصابنا الوهن وتعلقنا بالدنيا ، وخفنا من المخلوقين أكثر من خوف الله ، ونظرنا إلى أيدي العبيد نطلب منهم الرزق ، ونسينا أو تناسينا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام : ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ (٢).

وأصبحت عقيدة القضاء والقدر قضية ندرسها ونُدرِّسُها نظرياً ، فلم نتعامل معها واقعاً عملياً في معاملاتنا ، فمنا من يغش ويرابي ويكذب للحصول على المال ، فيستعجل الرزق من طريق حرام ، وإلا فإن ما قدّر الله من الرزق للمرابي وغير المرابي سيأتيه لا محالة ، فلا مانع لما أعطى الله ، ولا مُعطي لما منع ،

(١) سورة التوبة ، آية : ٥١ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية :

ومنّا من يجبن عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُؤثراً السلامة ، في مقابل سخط الله يريد سلامة دنياه والله عز وجل بيده وحده مقاليد الأمور كلها ، ولتعلقنا بالأسباب أصبحت الملامة عليها شيئاً دارجاً عند غالبنا المتعلم وغير المتعلم ، ولم نعِ قول الرسول ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير احرص على ما ينفعك . واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان) (١).

ومنّا من يركن للطبيب ويعلق قلبه بالعلاج ، ويعتقد أنه لو فاته العلاج أو لم يجد الطبيب لأصابه المرض أو الموت ، وهذا من الجهل وضعف الإيمان ، لأن الشافي هو الله ، فهو مسبب الأسباب والمسببات ، قال تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾(٢). قال ابن عمر رضي الله عنهما : والذي نفس ابن عمر بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر ، ثم استدل بقول النبي ﷺ : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) (٣).

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٨١٦) .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ٨٠ .

(٣) رواه مسلم برقم (٩) .

والأخذ بالأسباب واجب شرعاً ، لأن حكمة الله اقتضت أن جعل الأسباب مربوطة بمسبباتها ، ولو شاء الله لوقع المقدور بدون سبب ، وليس للعبد أن يركن إلى السبب بل يعتقد أنه مجرد سبب هيأه الله ، والأمر كله من عند الله أولاً وآخراً ، ومن فوائد اليقين في القضاء والقدر أن العبد لا ينسب الفضل لنفسه ،بل يُرجع كل فضل إلى ربه بأنه هو الذي شاءه وقدره ، وكذلك إذا أصابته المصيبة فلا يتقطع قلبه حسرات ، ويفزع إلى المخلوقين ، بل يطمئن لأنه يعلم أن هذا بتقدير الله الذي لا يتقدم ولا يتأخر ولا يستطيع أحدٌ كائناً من كان أن يدفع ما أصابه ، ولا أن يجلب له ما فاته .

الخامس عشر : (النصر على الأعداء) إذا صح الإيمان انتصر المؤمنون على أعدائهم لأن الإيمان الصحيح يزكي النفوس ويطهر القلوب ، فتصلح الحال ويكتب الله النصر والتمكين للمؤمنين ، لأن أسباب النصر داخلية في القلوب والنفوس ، قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (١). مع الأخذ بالأسباب لقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(٢).

فانظر إلى ما فعل الله بأهل الممالك العظيمة من القياصرة والأكاسرة الذين قصم الله ظهورهم وأزال ممالكهم ، وحطم عروشهم على أيدي أهل الإيمان الجياع الحفاة القلة لما صدقوا وأصلحوا ما بينهم وبين ربهم وتخلصوا من حظوظ أنفسهم، ولما نزل اليقين في قلوبهم بأن الله ناصرٌ دينه ، ومعلٍ كلمته ومعزٌ أولياءه ، فإنه سبحانه لا يضيعهم ولا يخزيهم أبداً ، وإن الدائرة على أهل الكفر والمحادة لله ورسله والمؤمنين . قال تعالى : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾(٣).

وإذا حضر اليقين وقام بقلب العبد سوق الجنة اشتدت الرغبة في لقاء الله فيفرح القوم بالجهاد يتركون الزوجات والأولاد والممتلكات ويريدون قطع

---

(١) سورة غافر ، آية : ٥١ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٦٠

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٢٦ .

رؤوسهم وسفك دمائهم ، لينتقلوا إلى مجاورة الرحمن في الجنان قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (١).

قال ﷺ : (من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه) (٢) ، وقال ﷺ : (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة) (٣). وقال ﷺ : (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) (٤) . وقال ﷺ : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمله ، واجري عليه رزقه وأمن الفتان) (٥) . والمقصود بالفتان قيل : فتنة القبر ، وقيل : الشيطان .

والمقصود أن القلوب إذا قصدت وتوجهت إلى ربها أحبت لقاءه وتشوقت إلى موعوده لقول النبي ﷺ : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) (٦) . فلماذا يريد المؤمن التشبث بهذه الأرض والركون إلى زينتها وشهواتها التي لوثتها الأقذار والفتن والغصص والبليات ؟ ولماذا يريد المؤمن الدنيا وأجله الموعود مضروب ؟ والأنفاس معدودة والفراق حاصل ! فلماذا لا يكون الفراق شهادة في سبيل الله ؟

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٦٩ .
(٢) رواه مسلم برقم (٣٥٣١) .
(٣) رواه الترمذي وقال حسن صحيح برقم (١٥٩١) .
(٤) رواه البخاري برقم (٢٦٠٠) .
(٥) رواه مسلم برقم (٣٥٣٧) .
(٦) رواه البخاري برقم (٦٠٢٦) .

يــا نفــس إن لم تقــتلي تمــوتي * هــذا حمــام المــوت قــد صُــليتِ

فيريد المؤمن أن يبيع نفسه على ربه ، فنعم البيع ، وهنيئاً لتلك الصفقة التي ثمنها الجنة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾[١].

واسمع إلى رسولك الشهيد ﷺ حيث يتمنى الشهادة ويقول : (والذي نفس محمد في يده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي ، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل)[٢].

وروى البخاري أن رجلاً قال : يا رسول الله : دلني على عمل يعدل الجهاد ، قال : (لا أجد) . ثم قال : (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر) قال : ومن يستطيع ذلك[٣].

وعن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بنت سراقة أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : ألا تحدثني عن حارثة – وكان قتل يوم بدر – فإن كان في

---

(١) سورة التوبة ، : ١١١

(٢) رواه مسلم برقم (٣٤٨٧) .

(٣) رواه البخاري برقم (٢٥٧٧) .

الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، فقال : (يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) (١).

وفضل الله عظيم حيث يضاعف الأجور لمن أنفق في سبيل الله ولو لم يغز ، فلقد جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة ، فقال هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة) (٢) . وقال ﷺ : (من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف) (٣).

وقال ﷺ : (من لم يغز أو يجهز أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة) (٤).

واليوم تداعت الأمم على المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، فاستغلهم الأعداء وساموهم سوء العذاب فهتكوا حرماتهم ونهبوا ديارهم ، وأبادوا أطفالهم وشيوخهم فضلاً عن شبابهم ، فليس الخلاص من هذا الذل والهوان بالتمني والتحلي ولا بالكثرة والأقوال والتماس رحمة الكافرين وقراراتهم ، فلا مخرج إلا بالجهاد ورفع راياته خفاقة يحملها أهل الصدق والإيمان بعد التربية على الإيمان وإعداد العدة ، وبعد أن نصلح ما بيننا وبين الله بالرجوع إليه .

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٥٩٨) .

(٢) رواه مسلم برقم (٣٥٠٨) .

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن برقم (١٥٥٠) .

(٤) رواه أبو داود برقم (٢١٤٢) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه موصياً أحد قادته : (إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإن لم ننتصر عليهم بفضلنا لم ننتصر عليهم بقوتنا) .

فالحذر الحذر من الذنوب ، والصدق الصدق في جهاد النفس وربطها بالله لتخلص وتستقيم حتى تكون أهلا للانتصار والثبات ، ثم إذا تمكنت وسادت حكّمت شرع الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الحج ، آية : ٤١ .

السادس عشر : (العناية بالوقت) إذا صح الإيمان اهتم العبد بوقته واشتدت عليه لحظاته في حسابه ، وأصبح ضنيناً بالأنفاس لا ينفقها إلا فيما يقربه إلى ربه ، لأن الأيام خزائن فلنودعها ما نشاء من خير أو شر أو عمل فاضل أو مفضول ، والنَفَسُ الذي يخرج لا يرجع وكل يوم يبعدنا عن دنيانا ويقربنا إلى الآخرة قال تعالى للكافرين يوبخهم: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾(١).

وقال ﷺ : (لا تزول قدمُ عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟)(٢).

إن الخير يدل على الخير ، فالحسنة تجر مثيلاتها ، ومن فتح على نفسه باب خير واحد بصدق تسابقت إليه الخيرات من كل جانب ، وتدفقت إليه المكرمات وضاق وقته بها ، واحتاج إليه الناس ، ولا يظن الظان أن حاجة الناس أو ضيق الوقت خاص بالعالم المفتي أو الداعية المشهور ، أو صاحب المال صاحب الإحسان والصدقات كلا ، فهؤلاء وأمثالهم أوقاتهم ضيقة نعم ، ولكن من مضى في أيامه ساعياً إلى الخير يريد العطاء وبذل الوقت والراحة وإيثار محاب الله على النفس ، تدفقت إليه السبل فكم هي حاجة المسلمين إلى كل شيء ، وكم يوجد من الثغرات

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح برقم (٢٣٤١) .

التي لم تسد ، وكم يوجد في المسلمين من لا يحسن قراءة الفاتحة ، وكم يوجد من غير المسلمين والمسلمين الجدد من هم بحاجة إلى الحرف الواحد من العربية ، وكم هناك من صنوف الخيرات بحاجة إلى نشر وتوزيع لتصل إلى الناس، إلى غير ذلك مما لا ينته لو وعاه المسلم اليقظ الحريص الذي يريد أن يمشي في سبيل الله .

هذا في بذل الوقت في النفع المتعدي للآخرين ، وكذلك الحال في النفع القاصر على النفس فهل من عمر أوقاته لله في قراءة كتاب ربه ، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ، فهل من وفق لهذا وغيره من الشكر والتذكر والاعتبار والصبر والاحتساب ، هل هو مثل من غفل ولم يُقم لمثل تلك الأمور اعتباراً في نفسه أو حياة لقلبه ، فقد شغلته دنياه ومعاشه ، وأصغى لهموم هذه الدنيا ، واشتغل بالآخرين ، وسفل همه للمحرمات وساقط القول ورديء الحال ، فاشتغل بدنياه عن آخرته .

واستمع إلى هذا التقرير من ابن القيم واضعاً النقاط على الحروف في تصريف الأيام لو لم يقضها المسلم في طاعة الله ، ولم يبذل نفسه لله حيث يقول : (ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون ، وغاية المؤمن أن يستشهد في الله ، وتلك أشرف الميتات وأسهلها ، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة ، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم ، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها ، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ

ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [١]. وقال ﷺ : (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) [٢].

وإذا كان هذا في مصيبة النفس فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله وإعلاء كلمته سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى ، وإن حبسه وادخره ومنعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنؤه ، وعلى مخلفه وزره ، وكذلك من رفّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه وتعالى أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته ، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب ، قال أبو حازم : لَمّا يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى .

واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل وطلب إعزاز نفسه ، فصيره الله أذل الأذلين ، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته ،فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، كذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه ، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار [٣].

هربوا من الرق الذي خلقوا له * وبلوا برق النفس والشيطان

(١) سورة الأحزاب ، آية : ١٦ .

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٢٨) .

(٣) حكمة الابتلاء لابن القيم ، ص ٥١

السابع عشر : (كفاية الله لعبده) إذا صح الإيمان استشعر المؤمن أن الله كافيه وناصره وحافظه ومعينه ، فإذا استشعر ذلك في قلبه لم يخف من عدوه ولم يأخذ للناس حساباً ، فقد حضر عنده اليقين في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾[1]. فحينئذ لا يشتغل بعدوه ولا يصبح هو همه ، وكيف يحتمي منه ويطلب النصرة من الخلق ضده ويفزع لذلك !؟ وكيف تقض مضجعه عداوة عدوه وشراسته وكثرة عدده وعدته ومكره ؟ وهو متصل بالله يعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه سبحانه هو خير الحافظين والناصرين .

والذي يعني المؤمن أولاً وأخيراً هو ارتباطه بالله وإصلاح قلبه وحاله مع ربه مع الأخذ بالأسباب الشرعية التي هو مأمور بها شرعاً ،بحيث يتوكل على ربه ويخاف منه ويرجوه ، ويعتقد فيها يتوصل إليه من أسباب أنها مجرد أسباب اقتضتها حكمة العليم الخبير ، وأن الله هو مسبب الأسباب ومقدر المسببات وأن الأمر كله بيد الله من أوله لآخره .

وقد قيل : إذا كان الله معك فممن تخاف ؟ وإذا كان الله عليك فمن ترجو ؟ وقيل : من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله مابينه وبين الناس ، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء ، ومعية الله للمؤمنين المتقين معية خاصة تقتضي الحفظ والنصرة والتأييد .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

وفي وصية ابن عباس التي وصاه بها الرسول ﷺ فقال له : (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك)[3].

إن هذه المعاني نقرؤها ونكتبها ونحفظها وربما نُعلمها ولكن ما هو نصيبنا العملي منها ؟ وما محلها في قلوبنا . إنك تشاهد كثيراً من المسلمين الركع السجود منهم من اشتغل بالخلق عن نفسه ، ومنهم من خاف الناس أكثر من خوف الله ، وهذه حال شبيهة بحال المنافقين الذين يحسبون كل صيحة عليهم ، ومنهم من يريد حفظ دنياه وشهواته ويخاف من زوالها فيهرع إلى قوة تحميه ولو كان الشيطان وأعوانه من الكفرة والفجرة . قال تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[4].

ومن الناس من يشتكي إلى الناس ولا يشتكي إلى ربه ولا يفزع إليه ولا يُنزل حوائجه فيه ، وإذا حصل الأذى عليه والقهر والمصيبة لا يرجع إلى نفسه ويطهرها

(١) سورة النحل، آية : ١٢٨ .
(٢) سورة الأنبياء، آية : ٤٢ .
(٣) رواه الترمذي برقم (٢٤٤٠) .
(٤) سورة المائدة، آية : ٥٢ .

من الذنوب التي سببت له المصائب ، أما صحيح الإيمان فإن الله منحه السكينة في قلبه والرضا واليقين ، فإقبال الدنيا عليه وإدبارها عنده سواء بل هو يخاف من إقبال الدنيا أن تفتنه وتصده عن ربه وتلهيه فيغفل ، وقد حذرنا الله منها ، وصحيح الإيمان هو الذي وهبه الله قوة القلب والثبات والصبر والتجلد ، لأنه موصول القلب بربه فلا يقلقه الكيد ولا تطيش به الأحداث ولا تذهب بصوابه شماتة الشامتين وإرجاف المرجفين .

فكم نحن بحاجة إلى القدوات من المؤمنين الصادقين الذين يعيشون لآخرتهم ويبيعون حياتهم وأموالهم وأوقاتهم على ربهم .

قال ابن القيم رحمه الله : معلقاً على هذه الآية : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾[1]. قال : فجمع سبحانه بين النصر والرزق فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره ويجلب له منافعه برز¯ ، فلا بد له من ناصر ورازق والله وحده هو الذي ينصر ويرز

ومن كمال فطنة العبد أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره ، وإذا ناله بنعمة لم يرز¯ إياها سواه ، ويذكر أن الله أوحى إلى بعض أنبيائه : أدرك لي لطيف الفطنة وخفي اللطف فإني أحب ذلك . قال : يا ربي وما لطيف الفطنة ؟ قال : إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا الذي أوقعتها فاسألني أن أرفعها ، قال :

(١) سورة الملك ، آية : ٢٠ - ٢١ .

وما خفي اللطف ، قال : إذا أتتك حية فاعلم أني أنا ذكرتك بها) .قال تعالى عن السحرة ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ (١). فهو سبحانه الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه) (٢).

(١) سورة البقرة ، آ : ١٠٢ .
(٢) إغاثة اللفهان ، ابن القيم ج ١ ، ص ٣٤

الثامن عشر : (أنوار محبة الله) إذا صح الإيمان أثمر محبة الله للعبد وأثمر محبة العبد لربه ؟ فالله عز وجل يُحِب ويُحَب . قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [١]. وهو سبحانه يُعبد بالخوف والرجاء والمحبة قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [٢] .

فإذا أوقع الله محبته في قلب عبده حيا ذلك القلب واستيقظ وطلب رضى محبوبه بكل طريق ، يتقلب في سره وعلانيته وفي شدته ورخائه على مراقي العبودية، فمن وفقه الله أحبه .قال ﷺ : (قال الله تعالى : ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، إن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه) [٣].

قال ابن القيم رحمه الله عن المحبة : (وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون ، وعليها تفانى المحبون ، وبروح نسيمها تروح العابدون ، فهي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها فهو من الأموات ، والشفاء التي من عدمها حلت في قلبه جميع الأسقام ، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، وقد قضى الله أن المرء مع من أحب ، فيالها من

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٩٠ .

(٣) رواه البخاري برقم (٦٠٢١) .

نعمة على المحبين سابغة ، تالله لقد سبق القوم السعادة وهم على ظهور الفرش نائمون)[١].

وانظر إلى صفات الذين أحبهم الله وأحبوه من خلال هذه الآية . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[٢].

قال ابن القيم : (فقد ذكر لهم أربع علامات الأولى والثانية أنهم أذلة أعزة . قيل معناه أرقاء رحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم . قال عطاء : كالولد لوالده والعبد لسيده ، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته . العلامة الثالثة الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال ، وذلك تحقيق دعوى المحبة . العلامة الرابعة أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم وهذا علامة صحة المحبة .

وذكر الله الذين يحبهم في القرآن فهو سبحانه يحب التوابين والصابرين والمحسنين والمتطهرين والمتقين والذين يقاتلون في سبيله وضد ذلك فإن الله لا يحب الفساد والظلم والاختيال والفخر ، وذكر الهروي تعريف المحبة فقال : هي تعلق القلب بين الهمة والأنس ومبادئها ، فقال : محبة تقطع الوسواس وتسلي عن المصائب)[٣].

وهكذا فإن من ثمرات الإيمان نزول محبة الله في قلب العبد فيثمر له ذلك الشوق إلى لقاء ربه وتتبع مراضيه وعدم الملل والسآمة من متابعة الهم والعمل

(١) مدارج السالكين (منزلة المحبة) .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص ٥١٥ وما بعدها .

وتحمل المشاق في سبيل الله واستحلاء ذلك . قال ﷺ : (لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة) [١]. وقال عمر بن عبد العزيز فيما معناه (إن لي نفساً تواقة فتاقت إلى الإمارة ثم إلى الخلافة وأنها الآن تتوق إلى الجنة) .

ولا بد من البرهان على صدق دعوى محبة العبد لربه قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[٢]. ونأخذ من هذه الآية علامة خامسة وهي اتباع الرسول ﷺ ، والناظر اليوم في حال الكثير منا يجد أن المحبة مجرد دعوى لم تقم حقيقتها في القلوب ، لأنها قد انطوت على محبة الدنيا ومحبة النفس للفخر واتباع الهوى والحسد والمنافسة ومحبة المدح والثناء والتزين أمام الخلق والخوف من هبوط المنزلة في أنظارهم إذا اعتراف بالحق أو قام بعمل لوجه الله يرى أن منزلته وقيمته العلمية والاجتماعيىة فوق ذلك العمل .

ولو صدقت المحبة لله لطهرت القلوب من كل هذه العثرات والخبايا الكامنة والإلتواءات الوبيلة التي مكن لها إيثار حظ النفس وملاحظة الخلق وضعف الحياء والمراقبة لله . عن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أحب الله عبداً حماه في الدنيا كما يحمي أحدهم سقيمه الماء) [٣]. وقسم العلماء المحبة إلى خمسة أقسام :

---

(١) رواه الترمذي برقم (٦٢١٠) .

(٢) سورة آل عمران ، آ- : ٣١ .

(٣) رواه الترمذي برقم (١٩٥٩) .

الأولى : محبة الله : وهي محبة التأله والتعظيم ، وحقيقتها أن تجد في قلبك الشوق والحنين إلى لقاء ربك ورؤيته والتلذذ برؤية وجهه والقرب منه والتمتع بسماع كلامه والأنس به وبذكره ونيل رضوانه وحنانه ولطفه والفرح بهذه النعمة الغالية التي هي أعلى نعيم أهل الجنة قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وقوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وإذا نزلت محبة الله في قلب العبد وجد بها انشراح الصدر وقرة العين وحلاوة المناجاة ونعمة السكينة وربيع الروح وهنيء الحياة بذكر الله ودعائه والانكسار بين يديه والانطراح ببابه وكثرة حمده وشكره والاغتباط بآلائه ، والمحب لله يطلب ولاية ربه وحفظه ونصره وتثبيته وتسديده وإعانته وتوفيقه وقبوله ، والمحب لله يجد الرغبة القوية في محبة طاعة ربه والتقرب إليه بكل سبيل يرضيه ، كما يجد المحب لربه الوحشة والنفور والبغض من كل مالا يحبه الله ورسوله . من حرام أو مكروه أو متشابه . كما يجد المحب لربه الضيق والألم من التوسع في المباحات التي تضيع عليه عمره فيما لا يقربه إلى مولاه وحبيبه. قال النبي ﷺ : (والله لا يلقي الله حبيبه في النار) [1] فعسى الله أن يكتب لنا محبته وينزلها في قلوبنا ليشرح بها الصدر ويرفع بها العمر ويحط بها الوزر ويعلي بها القدر ويدفع بها الخطر ويقربنا بها إليه ويجعلنا من أوليائه المحبين الصادقين المخبتين المنيبين السابقين المقربين .

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح .

الثانية : المحبة مع الله : وهي المحبة الشركية ، وهي محبة المشركين لأصنامهم

الثالثة : محبة ما يحبه الله ورسوله : من الأقوال والأعمال والنيات .

الرابعة : محبة لله وفي الله : وهي محبة الأشخاص والأمكنة والأزمنة كمحبة الصالحين ومواسم الخيرت والأماكن المفضلة .

الخامسة : المحبة الطبيعية : كمحبة الوالدين والأولاد والزوجة ومحبة النوم والطعام والشراب .

التاسع عشر : (العلم النافع) إذا صح إيمان طالب العلم نظر في علمه هل هو من العلم النافع أم لا ؟ فإن طلب العلم هو أفضل عبادة بعد الفرائض كما ذهب إلى هذا الشافعي وغيره لأن العلم هو الموصل إلى طاعة الله ومحبته وإلى اتباع الرسول ﷺ، وأولوا العلم هم أصحاب الميراث النبوي وحملة الدين .قال الله تعالى لنبيه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[1].

فلو كان شيء أفضل من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله منه ، وصار العلم بهذه المنزلة لأنه يُتقرب به إلى الله ، فلينظر طالب العلم في علمه ، فإن زاده علمه عبادة وإنابة إلى ربه وتواضعاً وخشوعاً وأدباً وخُلقاً فليفرح بذلك فإن هذه علامة العلم النافع ، وإن رأى أن علمه ازداد به تعاظماً في نفسه وقسوة في قلبه وصار لنفسه حظ من ذلك في مماراة السفهاء ومباهاة العلماء واجتياز المجالس ومنافسة الأقران وطلب المكانة والمنزلة في قلوب الآخرين واشترى بعلمه الثناء والرياء والسمعة فإن العلم هنا غير نافع ، بل صاحبه من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة عياذاً بالله .

قال ابن رجب رحمه الله : (يدل العلم النافع على أمرين أحدهما يدل على معرفة الله وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويسخطه ، قال طائفة من الصحابة : (إن أول علم يرفع من الناس الخشوع) [2]. وقال الحسن : العلم علمان فعلم

(١) سورة طه ، آية : ١١٤ .

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٥٧٧) .

اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم ، وعلم القلب فذاك العلم النافع . وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول عن معروف : معه أصل العلم خشية الله ، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : (اللهم إني أعوذ بك من علم لاينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها)[١] . ثم قال ابن رجب رحمه الله : إن علامة العلم النافع أن يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح وصاحبه لا يدعي العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها . سئل أبو حنيفة عن علقمة والأسود أيهما أفضل فقال : والله ما نحن باهل أن نذكرهم فكيف نفضل بينهم ؟ .

وقلة الكلام عند السلف إنما كانت ورعاً وخشية . قال ابن عباس لقوم سمعهم يتماروں في الدين : (أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء والطلقاء والنبلاء . العلماء بأيام الله غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكيات يعدون أنفسهم من المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء مع الظالمين الخاطئين ، وإنهم لأبرار بُرآء) أخرجه أبو نعيم .

وقال بعض السلف : إن كان الرجل ليجلس إلى القوم فيرون أن به عياً وما به من عي ، إنه لفقيه مسلم .

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٨٩٩) .

وفي الجملة : ففي هذه الأوقات الفاسدة إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالماً عند الله ، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالماً ، فإن رضي بالأول فليكتف بعلم الله فيه ، ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله إياه، ومن لم يرض إلا بأن يكون عالماً عند الناس دخل في قوله ﷺ : (من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء ، أو يصرف وجوه الناس إليه فهو في النار)[1].

وقال الحسن : لا يكن حظ أحدكم من عمله أن يقول له الناس (عالم) .

ومن هذا القبيل كراهة السلف الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها والإكثار منها . عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسالة ما منهم رجل إلا ود أن أخاه كفاه ، وفي رواية فيردها هذا إلى هذا ، وهذا حتى يرجع إلى الأول . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون) . إسناده صحيح . وقال عمر بن خلده : إذا سُئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل ، ولكن تخليص نفسك أولاً . إسناده صحيح .

ومن هذا الباب كراهة أن يشهر الإنسان نفسه بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه .

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٤٩) .

وكتب وهب بن منبه إلى مكحول : أما بعد فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفاً ومنزلة فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى . واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى [١].

ثم قال ابن رجب رحمه الله مبيناً أخلاق العالم أو طالب العلم المفتتن بعلمه : إن كَثُر العلماء في عصره فذُكروا بالعلم أحب أن يُذكر معهم ، وإن بلغه أن أحداً أخطأ وأصاب هو فرح بخطأ غيره ، وكان حكمه أن يسوءه ذلك ، وإن سئل عن ما لا يعلم أنف أن يقول لا أعلم حتى يتكلف مالا يسعه في الجواب ، وإن قال قولاً وتوبع عليه وصارت لديه رتبة عند من تابعه عليه ثم علم انه أخطأ أنف أن يرجع عن خطئه لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين ، ويتجمل بالعلم كما تتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ، ولا يجمّل علمه بالعمل به .

وقال سفيان : من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يسأل . رواه الخطيب وإسناده حسن) [٢].

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف ، لابن رجب الحنبلي .

(٢) المرجع السابق .

العشرون : (حقيقة الشكر) إذا صح إيمان العبد قامت في قلبه حقيقة الشكر لله والاعتراف له بالفضل والمنة واستشعر قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (١).واستحضر أن كل ما به من قوة وسمع وكلام وبصر وحركة وقدرة وذكاء وعقل وأخذ وعطاء وأكل وشرب ونفس وأن ما احتوى عليه هذا الجسم من خلايا وعروق وأنسجة وأعصاب وما يجري فيه من دماء أن كل ذلك وغيره مما نعلم ومما لا نعلم أنه من الله وبتدبيره وفضله ورعايته وحفظه ، ليس فقط على المتقين العابدين بل على الناس أجمعين مسلمهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم وبهائمهم وإنسهم وجنهم ورطبهم ويابسهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

قال العلماء : الشكر يقوم على ثلاثة أركان :

الأول : الاعتراف باللسان أي التحدث بالنعمة ونسبتها إلى الله .

الثاني : الاعتقاد الصادق بالقلب بأن الله هو واهب النعم .

الثالث : استعمال النعم في طاعة الله وبذلها فيما يرضيه .

عن بكر المزني قال : يا ابن آدم إذا أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك . وقال آخر : كم من نعمة لله في عرق ساكن لو شاء الله أن يحركه حركه فأزعج صاحبه .

---

(١) سورة النحل ، آية : ٥٣ .

(٢) سورة النحل ، آية : ١٨ .

فهذه النعم مما يسأل الإنسان عن شكرها يوم القيامة ويطالب بها . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾[١].

(والغفلة عن النعم لها أسباب منها : الجهل بعظم النعمة التي تعم الخلق ، فالجاهل لا يعد الهواء والصحة مثلاً نعمة ، وإذا ابتلي أحد بشيء سلب منه ثم عاد إليه اعتبر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا جهل لأنه جعل الشكر موقوف على سلب النعمة ثم درها ، فلا يشكر البصير إلا إذا عمي ثم رد الله عليه بصره ، فمثل هذا مثل عبد السوء يضرب دائماً فإذا ترك ضربه ساعة شكر واعتبر ذلك منّة ، وإن ترك ضربه أصلاً غلبه البطر وترك الشكر .

ومن نعم الله أنه ما من أحدٍ إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفاياه الكثير من القبائح ولو كشف الغطاء واطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، وكيف لو اطلع الناس كلهم عليها ، فلِمَ لا نشكر الله بستره الجميل على مساوئنا حيث أظهر الجميل وستر القبيح ؟ قال الرسول ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم) [٢].

إن من قامت في قلبه حقيقة الشكر استشعر أنه بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر ، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار ، إننا نشاهد المرضى والمبتلين والجناة والذين يُقَتَّلون ويُعَذَّبون فنشكر الله على السلامة ،

(١) سورة التكاثر ، آية : ٨ .
(٢) رواه مسلم برقم (٥٢٦٤) .

ونحضر إلى المقابر فنعلم أن أحب الأشياء للموتى أن يُردوا إلى الدنيا ليتدارك من عصى عصيانه ، وليزيد في الطاعة من أطاع ، ولكن هيهات لهم . فعلينا أن نشكر الله الذي بسط علينا الحياة لنعمل صالحاً ونتوب إليه .

قال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رب إن أنا صليت فمن قبلك ، وإن أنا تصدقت فمن قبلك ، وإن أنا بلغت رسالتك فمن قبلك ، فكيف أشكرك ؟ قال الآن شكرتني . وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً ويقول : أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد ، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد ، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد ، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد . ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً) [1].

إن الشكر ضرورة شرعية وثمرة كبيرة تدل على صدق الإيمان بنعم الله ، وجميل ألطافه الغزار ومواهبه العظام ، فهل نتفطن لذلك ؟.

---

(١) من كتاب الشكر لأبي بكر محمد بن أبي الدنيا – تحقيق بدر البدر – باختصار .

روضـات المؤمنـين

إن المؤمنين الصادقين هم الذين أنابوا إلى ربهم وتوجهوا إليه ووهبهم ربهم وأفاض عليهم من جزيل نعمه ، وأسبغ عليهم الحياة الطيبة في نعيم قلوبهم وغذاء أرواحهم ، ورزقهم التلذذ بذكره وحلاوة مناجاته ، ورزقهم القناعة والسكينة والرضا واليقين ، وأقر عيونهم بالخلوة به والوقوف بين يديه ، وشرح صدورهم بالإيمان . قال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]. قال رسول الله ﷺ : (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[2]، وقيل : (لأهلُ الليل في ليلهم أشد فرحاً من أهل الباطل في لهوهم) .

والمؤمنون المنيبون إلى ربهم أحبوه فأحبهم وتولاهم ، فصاروا يطلبون محابه ومراضيه في كل سبيل . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهي موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض ، ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، فكلما قويت المحبة في القلوب طلب القلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات ، وقال شيخ الإسلام رحمه الله : (كلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه ، والقلب فقير

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٢٢ .

(٢) سنن النسائي برقم (٣٨٧٩) .

بالذات إلى الله من الوجهين ، من جهة العبادة وهي العلة الغائيه ، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يتلذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه ، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[1].

وقال رحمه الله : (وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره ، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة) .

وإليك هذه القطوف من سير أسلافنا وهم يتقلبون في ربيع الإيمان الذي هو دواؤهم وبهجة نفوسهم ، فيه يتنعمون ويلوذون عن أكدار الدنيا وصخبها وأطماعها وعن هموم معالجة الخلق ، ومن ذلك : ما ذكره صاحبا كتاب (أين نحن من أخلاق السلف) .

١- قال الليث بن سعد وغيره : كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب لي بالعلم كله ، فكتب إليه : إن العلم كثير ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس ، خميص البطن من أموالهم ، كاف اللسان عن أعراضهم ، لازماً لأمر جماعتهم فافعل .

---

(١) سورة الفاتحة ، آية : ٥ ، الفتاوى ، المجلد العاشر ، ص ١٩٣ وما بعدها .

٢- قال سليمان التيمي قال الأحنف : ثلاث فيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر : ما أتيت باب السلطان إلا أن أدعى ، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما ، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير .

٣- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا أفضل منكم . قيل له بأي شيء ؟ قال : إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم ، وقال : من أراد الآخرة أضر بالدنيا ، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة ، ياقوم أضروا بالفاني للباقي .

٤- قال شداد بن أوس : الخير كله بحذافيره في الجنة ، والشر بحذافيره في النار ، وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البار والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ، ولكلٍ بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

٥ – قال ابن القيم : أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة ، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق .

٦- قال الحسن البصري : إذا لم تقدر على قيام الليل ، ولا صيام النهار ، فاعلم أنك محروم قد كبلتك الخطايا والذنوب ، وجاءه رجل يسأله : يا أبا سعيد أعياني قيام الليل فما أطيقه . فقال : يا ابن أخي استغفر الله وتب إليه ، فإنها علامة سوء ، وكان يقول : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم من قيام الليل .

٧- قال الذهبي : فقد ترى الرجل ورعاً في مأكله وملبسه ومعاملته ، وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه ، فإما أن يتحرى الصدق فلا يكمل الصدق ، وإما أن يصدق فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليُعظّم وإما أن يسكت في موضع الكلام ليثنى عليه ، ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة .

٨- قال أبو عبد الله الأنطاكي : اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا ، فرقَّ سفيان وبكى ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس رحمة وبركة ، فقال له الفضيل : لكني يا أبا عبد الله أخاف ألا يكون أضر علينا منه ، ألست تخلصت إليَّ احسن حديثك ، وتخلصت أنا إلى أحسن حديثي ، فتزينت لي وتزينت لك ، فبكى سفيان وقال : أحييتني أحياك الله .

٩- قال أبو بكر بن عياش : أدنى نفع السكوت السلامة وكفى به عافية ، وأدنى ضرر المنطق الشهرة وكفى بها بلية .

١٠- قال أبو عبد الله البخاري : أرجو أن ألقى الله ، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً

١١- قال سهل التستري : إن أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، وألا يغتابوا ولا يُغتاب عندهم ، وألا يشبعوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، ولا يمزحون أصلاً[(١)].

(١) من كتاب (أين نحن من أخلاق السلف) لعبد العزيز الجليل وبهاء الدين عقيل .

٢- قال سليمان التيمي قال الأحنف : ثلاث فيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر : ما أتيت باب السلطان إلا أن أدعى ، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما ، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير .

٣- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا أفضل منكم . قيل له بأي شيء ؟ قال : إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم ، وقال : من أراد الآخرة أضر بالدنيا ، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة ، ياقوم أضروا بالفاني للباقي .

٤- قال شداد بن أوس : الخير كله بحذافيره في الجنة ، والشر بحذافيره في النار ، وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البار والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ، ولكلٍ بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

٥ – قال ابن القيم : أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة ، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق .

٦- قال الحسن البصري : إذا لم تقدر على قيام الليل ، ولا صيام النهار ، فاعلم أنك محروم قد كبلتك الخطايا والذنوب ، وجاءه رجل يسأله : يا أبا سعيد أعياني قيام الليل فما أطيقه . فقال : يا ابن أخي استغفر الله وتب إليه ، فإنها علامة سوء ، وكان يقول : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم من قيام الليل .

٧- قال الذهبي : فقد ترى الرجل ورعاً في مأكله وملبسه ومعاملته ، وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه ، فإما أن يتحرى الصدق فلا يكمل الصدق ، وإما أن يصدق فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليُعظّم وإما أن يسكت في موضع الكلام ليثنى عليه ، ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة .

٨- قال أبو عبد الله الأنطاكي : اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا ، فرقَّ سفيان وبكى ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس رحمة وبركة ، فقال له الفضيل : لكني يا أبا عبد الله أخاف ألا يكون أضر علينا منه ، ألست تخلصت إليَّ احسن حديثك ، وتخلصت أنا إلى أحسن حديثي ، فتزينت لي وتزينت لك ، فبكى سفيان وقال : أحييتني أحياك الله .

٩- قال أبو بكر بن عياش : أدنى نفع السكوت السلامة وكفى به عافية ، وأدنى ضرر المنطق الشهرة وكفى بها بلية .

١٠- قال أبو عبد الله البخاري : أرجو أن ألقى الله ، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً

١١- قال سهل التستري : إن أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، وألا يغتابوا ولا يُغتاب عندهم ، وألا يشبعوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، ولا يمزحون أصلاً [1].

---

(١) من كتاب (أين نحن من أخلاق السلف) لعبد العزيز الجليل وبهاء الدين عقيل .

من قواصم الإيمان

إن الأسباب المنافية للإخلاص كثيرة والتي توجب ضعف الإيمان وتضعف أثره ، فمنها الرياء والسمعة والعجب والغرور والتكبر والإدلال والمداهنة والكذب ومحبة المدح وطلب المنزلة في قلوب الناس ، وسأقتصر على اثنين منها وهما العجب والرياء .

أولاً : العجب :

آفة خطيرة على حياة العابدين لأن العبادة هي كمال الذل مع كمال المحبة. والعجب ينافي الذل والافتقار إلى الله ، فهو رؤية النفس والطاعة والافتخار بالعبادة والإنجازات الخيرية والمآثر الإصلاحية ، ولما عجز الشيطان عن الصلحاء في إغرائهم بالمعاصي أتاهم من طريق خفي حتى من داخل أنفسهم ، أتاهم بداء العجب والتعاظم ، وإضافة الخير إلى النفس .

قال المحاسبي : العجب بالدين حمد النفس على ما عملت أو علمت ، ونسيان النعم من الله عز وجل عليك بذلك . فحمد النفس ونسيان النعم هو العجب بالدين .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : والعجب قرين الرياء لكن الرياء من باب الإشراك بالخلق ، والعجب من باب الإشراك بالنفس ، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمعجب لا يحقق قوله : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فمن حقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ، ومن حقق قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب .

الفرق بين الكبر والعجب :

(العجب أن يعجب بعمله فيحمد نفسه عليه وينسى منة ربه بذلك ، ولا يتكبر على أحد ، والكبر إذا أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره فيحقره ويزدريه ، فيكون حينئذٍ متكبراً معجباً)(١) .

والإدلال يوجب توقع الجزاء مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .قال الرسول ﷺ : (لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم أكبر من ذلك العجب)(٢).

وأما عن خطر العجب وعظم آفاته وأضراره فقد قال الغزالي : اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر ، فيتولد من العجب والكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى ، والعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، وأما العبادات فإنه يستعظمها ويتبجح بها ، ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذا ، ويظن أنه عند الله بمكان ، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها (٣).

قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾(٤)، وقال ﷺ : (ثلاث مهلكات : هوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب

---

(١) مختصر منهاج القاصدين . ص : ٢٥٤ .

(٢) صحيح الجامع برقم (٩٤٣٤) .

(٣) معالم في السلوك . لعبد العزيز العبد اللطيف ، ص : ٦٥ ، ٩٥ .

(٤) سورة التوبة ، آ- : ٢٥ .

المرء بنفسه)[١]. رواه الطبراني وحسنه الألباني ، وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : (بحسب المرء من العلم أن يخشى الله ، وبحسبه من الجهل أن يعجب بعلمه)

ومن أسباب العجب ما يلي :

١ - الجهل بحق الله تعالى وعدم تقديره حق قدره وقلة العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وضعف التعبد لله بهذه الأسماء والصفات .

٢- الغفلة عن حقيقة النفس وقلة العلم بطبيعتها والجهل بعيوبها وأدوائها وإهمال محاسبتها ومراقبتها .

٣- الإطراء والمدح في الوجه دون مراعاة الضابط الشرعي في ذلك ، وهو ألا يكون في المدح إفراط ومجاوزة للحد ، وأن يكون بالحق لا بالباطل ، وأن يكون المدح لمن لا يخشى عليه الفتنة من إعجاب وغيره .

٤- صحبة نفرٍ من ذوي الإعجاب بأنفسهم .

٥- الوقوف عند النعمة ونسيان المنعم والله يقول : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[٢]

٦- الإغترار بالصدارة بالعمل قبل النضج وكمال التربية .

٧- المبالغة بالتوقير والاحترام .

٨- التعاظم بسبب عراقة النسب وشرف الأصل ، والله يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[٣].

---

(١) صحيح الجامع (٥٣٥٠) .

(٢) سورة النحل ، آية : ٥٣ .

(٣) من كتاب آفات على الطريق للسيد أحمد نوح ، سورة المؤمنون ، آية :

وأما علاج العجب فهو أن تعلم أنك وما بك وما صدر منك فهو من الله سبحانه الخالق الواهب مسبغ النعم ومواليها . قال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[١]، وأن تعلم أن الله منَّ عليك بنعمة الهداية للإسلام . قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[٢].

قال ابن القيم رحمه الله : (اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو فعل يبتغي به مرضاة الله مطالعاً فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه ، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول والفعل ، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظة ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله ر ؤية النفس وغيبته عن شهود منّة ربه وتوفيقه)[٣].

فمن علم أن الله تعالى مقلب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وأن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يرى الناس وأنه لمن أهل النار . إذا علم ذلك أثمر هذا الإيمان خوفاً ووجلاً وتذللاً وخضوعاً .

---

(١) سورة لقمان ، آ- : ٢٠ .
(٢) سورة الحجرات ، آية :
(٣) الفوائد ، ص : ١٤٤ .

قال ابن بطال : (في تغييب خاتمة العمل حكمة بالغة وتدبير لطيف لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحجب عنه)[١].

وإن من كمال رحمة الله تعالى وتمام حكمته سبحانه أن جعل النفس البشرية قابلة للخير والشر ، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، قال ﷺ : (لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم أكبر من ذلك العجب)[٢].

قال ابن القيم رحمه الله : (فلولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب) ، وقال ابن الجوزي : إن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيها هو شر من فوت ما فاتها وهو العجب بحالها والاحتقار لجنسها ، وربها ترقت بقوة عملها وعرفانها إلى دعوى لي وعندي وأستحق ، فتركها في حومة الذنب تتخبط ، فإذا وقفت على الشاطيء ، وقامت بحق ذلة العبودية أولى لها)[٣].

قال بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار أ . هـ . ومعنى ذلك أن يعمل العبد الحسنة فلا يزال معجباً بها فيتكبر ويغتر فيمقته ربه ويغضب عليه فيدخله النار ، والآخر يعمل الذنب فيرجع إلى ربه نادماً تائباً منكساً رأسه فيستشعر ذله وفقره إلى ربه ، فيلبس لباس ذل العبودية والتقرب إلى ربه مجتهداً طالباً عفوه ، فيرضى عنه ربه فيدخله الجنة .

---

(١) معالم في السلوك ، ص : ١٠٠ .

(٢) صحيح الجامع برقم (٩٤٣٤) .

(٣) المرجع السابق .

قال ابن حزم رحمه الله : وإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها ، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج عن تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت ، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه ، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما عملت وحفظت ، وإن أعجبت بمدح إخوانك فتفكر في ذم أعدائك إياك ، فحينئذ ينجلي عنك العجب ، فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك ، ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له ، فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها .. عافانا الله، فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها لو ظهرت إلى الناس وتمثل اطلاع الناس عليها ، فحينئذ تخجل وتعرف نقصك)[1].

(١) مختصر منهاج القاصدين ، ص : ٢٣٣ .

ثانياً : الرياء والسمعة :

الرياء : مشتق من الرؤية ، والسمعة : مشتقة من السماع ، فالمرائي يرائي الناس ما يطلب به الحظوة عندهم [١].

والرياء داء خطير وباب للشيطان على المؤمنين ، فلقد خافه الرسول ﷺ على صحابته وهم سادات الأولياء وخير القرون ، فقال ﷺ : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) قالوا : بلى قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) [٢].

والمقصود بالرياء إظهار العمل للناس وإطلاعهم عليه والتعريض فيه بأي وسيلة ، وهو مطلب للنفس تلح فيه للتخلص من مشقة العبادة ، ولذا فإن الإخلاص عزيز وعظيم لأنه ليس للنفس فيه نصيب ، ومن صدق في إخلاصه اكتفى باطلاع الله عليه والتفت عن الخلق .

قال ابن قدامة في أقسام الرياء :

الأول : الرياء في الدين : وهو أنواع :

١- أن يكون من جهة البدن بإظهار النحول والصفار ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة ، ويَقْرب من ذلك خفض الصوت ، وإغارة العينين وذبول الشفتين ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم .

(١) مختصر منهاج الصادقين .
(٢) رواه ابن ماجه برقم (٤١٩٤) .

٢- الرياء بالقول كالرياء بالوعظ وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاورة وإظهار غزارة العلم وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن .

٣- الرياء من جهة الزي كالإطراق حالة المشي وإبقاء أثر السجود على الوجه وتقصير الأكمام وترك الثوب غير نظيف .

٤- الرياء بالعمل كمراءاة المصلي بطول القيام والركوع والسجود وإظهار الخشوع

٥- المراءاة بالأصحاب والزائرين كالذي يتكلف أن يزور عالماً أو عابداً ليقال إن فلاناً زار فلاناً ، ومن يرائي بكثرة الشيوخ ليقال لقي شيوخاً كثيرة[1].

إلى غير ذلك من الأمثلة والأحوال الكثيرة الخفية التي سببها ترك النفس تجري فيما يريحها عند الخلق مباشرة أو غير مباشرة ، ومن ذلك :

١ - أن يتكلف الشخص أن يطلع الناس على عبادته تعريضاً أو تصريحاً .

٢- محبة أن يبدأه الناس بالسلام ويقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وينشطوا في قضاء حوائجه ويسامحوه في المعاملة ، فإن لقي في ذلك مقصراً ثقل ذلك على قلبه ، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ويحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم .

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ، ث : ٢٣٣ وما بعدها باختصار .

ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يُطّلع على عباداته أو لا يُطلع ففيه شعبة من الرياء .

ومن أخفى الطاعة مخلصاً لله ، ثم علم الناس بذلك ففرح بذلك بحسن صنع الله حيث أظهر الله طاعته وستر معصيته ففرح بذلك ، فهذا محمود لا لحمد الناس له ، وقيام المنزلة في قلوبهم حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه ، فهذا مكروه مذموم [١].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه . فقال : (تلك عاجل بشرى المؤمن) [٢].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه فهذا رياء .

---

(١) المرجع السابق (مختصر منهاج القاصدين) .
(٢) رواه مسلم برقم (٤٧٨٠) .

وسائل التربية الإيمانية

تقدم معنا أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكل طاعة تزيد الإيمان، وكل معصية تنقصه وكلما قوي الإخلاص والصدق في الطاعة وتمت المتابعة للرسول ﷺ كلما ازداد الإيمان وعمر القلب باليقين وازداد معرفة بالله وإقبالاً عليه واستشعر شدة فقره وضرورته إلى مولاه فأخبت إلى ربه وأناب قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

فمن كانت هذه حاله ازداد معرفة بنفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء، وأدرك أنه إن وُكِلَ إلى نفسه فقد وكل إلى عجز وهوى وظلم وقصور وضعف وإلى كل بلية ورزية وخذلان، وعلم الموفق أنه بالله ومن الله وإلى الله، فلا غنى له عنه طرفة عين، وهذه الوسائل تصلح أن تكون ثمرات يقطفها المؤمن من شجرة إيمانه التي إذا سقاها بالصدق والإخلاص والتقوى وسائر أعمال القلوب الصالحة أينعت وتدفقت بالخيرات من كل جانب، فعلك - أخي القارىء - تدرك أن بين الوسائل والثمرات هنا تشابه، فكل منها ثمرة للآخر.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم)[2]

---

(١) سورة الحج، آية: ٣٥.

(٢) رواه الطبراني والحاكم، صحيح الجامع، ج ٦، ص: ٥٦ برقم (٢٤٧٠).

ومن تلك الوسائل المعينة على زيادة الإيمان وتثبيته ما يلي :

١ - أن توظف الأقوال والبحوث والبرامج والتوجيهات والدروس لتكون كلها مذكرة بالله ، وداعية إليه لتحيي القلوب وتدرك أن الغاية من الخلق العبادة ، ولتعلم أن الغاية من كل عبادة هي إقبال القلوب على ربها خاشعة ذليلة منكسرة لتحقيق حقيقة العبودية ، لأن الله إنما شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام سوق الجهاد في هذا الدار لترجع القلوب إليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

فمن الضعف والقصور في التربية الإيمانية أن تكون الدروس والبحوث والمناهج علمية فقط لا تحيي القلوب ولا تؤثر في السلوك ، فمن الخطأ مثلاً أن نأخذ درساً في الغيبة والنميمة ، فنسرد النصوص والأسباب والعلاج نظرياً ، ثم ندع الموضوع جانباً ونرجع مباشرة في نفس الوقت والمكان ونقع في المحظور الذي عالجه الدرس ، فلابد من التطبيق العملي والتأثير السلوكي وربط القلوب بالله لتتقيه وتحذر من الوقوع في معصيته .

ومن الخطأ مثلاً : أن نأخذ درساً في غزوة بدر ونعرف تاريخها ومكانها وعدد المسلمين والمشركين ونتيجة تلك المعركة ، ثم ننتهي بهذه المعلومات التاريخية النظرية ، بل لابد من معرفة أسرار الانتصار والهزيمة وربط الموضوع بواقع الأمة وما تعانيه من هزائم وأسباب ذلك ، ومعرفة حكمة الله في مشروعية الجهاد

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

وثـواب المجاهـدين وتحريـك القلـوب لنيـل الـشهادة ، أي : أنـه لابـد أن يحمـل الموضوع الروح المؤثرة التي تحدو المؤمن للعمل الجاد لتحقيق الانتصار على نفسه أولاً ثم عدوه ثانياً وتعريف المؤمن بأعدائه وموقفه منهم .

ومن القصور كذلك أن نأخـذ درسـاً في التفـسير فنكتفـي بمعـاني المفـردات وسبب النزول والشواهد والشرح الإجمالي للآيات ثم لا نربط الآيات بواقع النـاس وننسى التذكير بعظمة كلام الله ، والوقوف عند عجائبه ، وما فيه من كنوز وأسرار .

٢- العنايـة بـالبرامج العمليـة التـي تـذكر بـالله : كزيـارة المقـابر ومجالـسة الصالحين، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والإحسان إلى الناس مع الاستمرار والمتابعة ، وبث روح المنافسة على الخير وإقامـة الـبرامج الفرديـة ، فيرسـم الواحـد برنامجاً لنفسه من العبادات كالصوم والوتر وقراءة القـرآن والأوراد ، والقـراءة مـن الكتب النافعة والصدقات وتقديم الخدمة للأهل والجيران وسائر المحتاجين .

٣- إثارة موضوع الجزاء والثواب من الله الكريم ومعالجة الزهد فيه ، فإنك تجد أعمالاً من الطاعات ميسورة سهلة وقـد رتـب الله عليهـا الأجـور العظيمـة ، ولكن نظراً لضعف الإيمان والزهادة في الخير نجد أن تلك الأعـمال شـبه مهملـة ، فلم تلتفت القلوب إلى اغتنام الخيرات في نفـس الوقـت الـذي تجـد فيـه الاهـتمام والحرص والسعيّ لأجل الدنيا سـواء مالهـا أو مناصـبها أو شـهواتها ، أو الـسعي لطلب رضى الخلق والرغبة في مديحهم وثنائهم ، فلابد من التـذكير بـما عنـد الله ، والتذكير بحاجة العبد للحسنة الواحدة .

قـال تعـالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾(١) . ويوم يقول كـل واحـدٍ يـوم القيامـة نفسـي نفسي ، وكذلك التذكير بنعمة الحياة التي هي فرصة العمل ، ونعمة الصحة حيـث يتمنى المريض والمقعد والميت يتمنون أشياء كثيرة يقدر عليها المعافى .

وكذلك التذكير بيقظة الكفار والمنحرفين أهل الباطل وتضحيتهم بأوقـاتهم للعمل بدنياهم وترويج أفكارهم ، وجهـدهم الـدؤوب لنـصرة بـاطلهم وبـذلهم الكبير لأموالهم وكل ما يملكون من أجل باطلهم ، فأين المسلم عن العمل لدينه ، فإن عليه أن يكون أكثر منهم عطاءً وتقديماً لنفسه لأنه على الحق . قال تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾(٢).

وإليك بعض الأمثلة السريعة لبعض العبادات الميسورة وما لها عنـد الله مـن عظيم الأجر .

قال الله تعـالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٠ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٠٤ .

(٣) سورة الزلزلة ، آية : ٧، ٨ .

قال ﷺ : (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس) [١].

وقال ﷺ : (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي ، صحيح الجامع . وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال ﷺ :(من توضأنحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه) [٢].

وعن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة ومحيت عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة وبني له بيت في الجنة) [٣].

وقوله ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله) وأحسبه قال : (وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر) [٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الإيمان فليتق الله في النصف الباقي) [٥].

---

(١) رواه مسلم بر˜ (٤٨٦١) .

(٢) رواه مسلم برقم (٣٣٢) .

(٣) رواه أحمد والترمذي برقم (٣٣٥٠) صحيح الجامع ، مجلد ٦،٥ ص : ٢٨٨ .

(٤) رواه البخاري برقم (٥٥٤٨) ، ومسلم برقم (٥٢٩٥) .

(٥) رواه الطيالسي (صحيح الجامع ، ج ٥، ٦ ص : ٢٦٩) برقم (٤٣١) .

وعن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر) [١].

وعن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بشيء من جسده أعطي بقدر ما تصدق) [٢].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع) [٣].

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من غسل يوم الجمعة واغتسل ، ثم بكَّر وابتكر ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها) [٤].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدَّين والغلول) [٥].

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات على شيء بعثه الله عليه) [٦].

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٢٥) .

(٢) رواه الطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٧٠) برقم (١١٠٩٦) .

(٣) رواه مسلم برقم (٤٦٥٨) .

(٤) رواه أبو داود برقم (٢٩٢) .

(٥) رواه أحمد والترمذي والنسائي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٣٢٦) برقم (١١٣٥٧) .

(٦) رواه أحمد برقم (١٣٨٥٤) (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ .ص : ٣٥٧ برقم (١١٧٨٥٩) .

وعن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر) (١).

وعن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بشيء من جسده أعطي بقدر ما تصدق) (٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع) (٣).

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من غسل يوم الجمعة واغتسل ، ثم بكَّر وابتكر ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها) (٤).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدَّين والغلول) (٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات على شيء بعثه الله عليه) (٦).

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٢٥) .
(٢) رواه الطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٧٠) برقم (١١٠٩٦) .
(٣) رواه مسلم برقم (٤٦٥٨) .
(٤) رواه أبو داود برقم (٢٩٢) .
(٥) رواه أحمد والترمذي والنسائي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٣٢٦) برقم (١١٣٥٧) .
(٦) رواه أحمد برقم (١٣٨٥٤) (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٣٥٧ برقم (١١٧٨٥٩) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة ، ومن مشى إلى تطوع فهي كعمرة نافلة)[١].

وعن أبي أمامة سهل بن حنيف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه كان له كأجر عمرة)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل الذي ينظر إلى متاع غيره)[٣] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك)[٤].

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت :قال رسول الله ﷺ : (من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حُرم على النار)[٥].

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول اله ﷺ : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[٦].

---

(١) رواه الطبراني . حديث حسن (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ ص : ٣٦٠) . برقم (١١٥٠٢) .
(٢) رواه ابن ماجه (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٧٥) برقم (١١٠٩٩) .
(٣) رواه ابن ماجه والحاكم (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ ص : ٢٧٨) برقم (١١١٢٩) .
(٤) حدث حسن رواه ابن ماجه (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٧٩) برقم (١١١٣٤) .
(٥) رواه الحاكم (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٨١) برقم (١١١٤٠) .
(٦) رواه مسلم برقم (١٣٤٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اله ﷺ : (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة) (١) .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من ختم له بصيام يوم دخل الجنة) (٢).

وعن واثلة قال : قال رسول الله ﷺ : (من دفن ثلاثة من الولد حرَّم الله عليه النار) (٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) (٤).

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : (من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار) (٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من ذكرت عنده فليصل عليَّ فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً) (٦).

---

(١) رواه الترمذي والحاكم (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٨٦) برقم (١١١٦٧) .
(٢) رواه البزار (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٨٧) برقم (١١١٦٩) .
(٣) رواه الطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٠) برقم (١١١٨٣) .
(٤) رواه مسلم برقم (٣٥٠٩) .
(٥) رواه أحمد والطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٠) برقم (١١١٨٥) .
(٦) رواه الترمذي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص : ٢٩١) برقم (١١١٩١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من رآني فإني أنا هو ، فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي) [١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل) [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة) [٣].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة) [٤].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال ر سول الله ﷺ : (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) [٥].

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من رفع حجراً عن الطريق كتب له حسنة ومن كانت له حسنة دخل الجنة) [٦].

---

(١) رواه الترمذي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٣) برقم (١١١٩٧) .
(٢) رواه الترمذي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٦٢) برقم (١١٥١٢) .
(٣) رواه الترمذي وابن حبان والحاكم (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٣٦٧) برقم (١١٥٣٩) .
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني حديث حسن (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٤) بر (١١٢٠٦) .
(٥) رواه أحمد والترمذي (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٥) برقم (١١٢٠٧) .
(٦) رواه الطبراني حديث حسن (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ . ص ٢٩٥) برقم (١١٢١٠) .

وعن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله ﷺ : (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) [١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سره أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله) [٢].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به له طريقاً إلى الجنة) [٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) [٥].

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) [٦].

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٥٣٢) .
(٢) رواه أحمد برقم (٧٦٢٦) والحاكم حديث حسن (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ .ص ٣٠٠) .
(٣) رواه الطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ .ص ٣٠١) برقم (١١٢٤٠) .
(٤) رواه مسلم برقم (٤٨٦٧) .
(٥) رواه البخاري برقم (٣٧) .
(٦) رواه أحمد ومسلم برقم (١٠٤٩) .

وعن عائذ بن قرظ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من صلى صلاة لم يتمها زيد عليها من سبحاته حتى تتم) (١).

وعن عبد الله بن حبيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من ضن بالمال أن ينفقه ، وبالليل أن يكابده ، فعليه بسبحان الله وبحمده) (٢).

٤ – القدوة : إن التربية بالقدوة أعظم الوسائل في التأثير وغرس المعاني والفضائل والأعمال في النفوس ومن حكمة الله أن أرسل الرسل من أقوامهم فهم معهم يعيشون وبهم يتأثرون قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٣).

ولما تأخر الصحابة في الحلق في قصة صلح الحديبية طمعاً في العمرة أشارت أم سلمة زوج النبي ﷺ عليه بأن يحلق ثم يخرج إليهم وفعل الرسول ﷺ ذلك فحلق الناس ، فنحن بحاجة ماسة إلى قدوات تظهر عليهم آثار الإيمان والصدق واليقين ، ويظهر عليهم أدب العلم ، وزينة التعامل والخلق الكريم في السمت والوقار والخشوع والمسارعة إلى الخيرات وحسن التعبد لله ، والإحسان إلى الخلق والتواضع وإبعاد حظ النفس .

---

(١) رواه الطبراني (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ .ص ٣١٤) برقم (١١٢٩٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في المعرفة (صحيح الجامع ، ج ٥ ، ٦ .ص ٣٢٠) برقم (١١٣٢٣) .

(٣) سورة الأحزاب ، آ : ٢١ .

ونحن بحاجة إلى القدوات في نظرتهم إلى الدنيا والزهادة فيها الذين تعلقت قلوبهم بالآخرة والإكثار من ذكرها كما قال تعالى عن بعض أنبيائه : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾(١) .

ونحن بحاجة إلى القدوات في تسجيل المواقف الخالدة الصادقة الأبية التي تقول الحق وتؤثر مرضاة الله على كل أحد فتصدع بالحق مدوياً في جنبات المعمورة لتنفخ الروح في الأمة التي عشعش عليها الوهن وخيّم عليها حب الدنيا وكراهية الموت ، لتبلغ تلك القدوات دين الله وتجهر به بالحكمة الشرعية ولا تخشى في الله لومة لائم .

ونحن بحاجة إلى القدوات في عمارة الأوقات بالبذل والعطاء لخدمة هذا الدين في حركة دائمة لا تهدأ ولا تستريح همها إيصال الخير للآخرين ودلالة من ضل إلى الطريق الصحيح . فمن صح إيمانه فهو لا يشبع ولا يمل ولا يكل من الدعوة إلى الله وبذل النصح وتقديم المعونات والدلالة على الخير قال تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾(٢) .

وقال عز وجل: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٣). وقال ﷺ : (لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة) رواه الترمذي .

---

(١) سورة ص ، آ : ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ، آ :

(٣) سورة الحديد ، آ :

٥ – البعد والحذر مما يقسِّي القلوب : ويجلب لها الغفلة واللهو ويبعدها عن الحياة الجادة والحزم والعزيمة لأن المؤمنين الصادقين لا يضعون رحالهم إلا في الجنة إن شاء الله . وأما هنا في هذه الدنيا فهم قوم شمروا عن ساعد الجد ولم يعد في حياتهم مكان للاشتغال بغيرهمّ الآخرة ورضى الرحمن ومنفعة العباد ، فركائبهم لا تقف ومساعيهم موصولة بربهم فلا مجال عندهم لكثرة الكلام والهزل والضحك وإضاعة الأوقات وكثرة النقد والتفكه في المجالس وكثرة اللقاءات الفارغة عما يفيد ويقوي الإيمان ويحي القلوب ويذكرها بما ينفعها ويطرد عنها الغفلة ، ولا مجال لكثرة الرحلات والتنزهات التي تقسي القلوب ويغلب عليها الاسترخاء بعيداً عن هموم المسلمين وأزماتهم وجراحهم وبعيداً عن المنكرات والمنحرفين الذين يتوجب على الصادقين نصحهم وإرشادهم ودلالتهم على النور.

وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن آفات الأخوة ثلاث : الأولى : الاجتماع والخلطة أكثر من الحاجة . الثانية : أن يكون الاجتماع رغبة ولذة يغيب بها عن المقصود . الثالثة : تزين الأخوان بعضهم لبعض دون مناصحة وتوجيه [1].

إن المسلم الصادق لا يصح أن يبقى بلا مهمة يؤديها لدينه بقدر ما يستطيع ، حتى يحيا في قلبه الهمّ لهذا الدين ، ويحيا في قلبه وروحه الشعور بالتبعة والمسئولية والتألم لحال المسلمين وما هم فيه من انحراف عن جادة الصواب ، ويستشعر أن الدعوة مسئولية وواجب الأمر والنهي ليس هو واجب فئة معينة من الناس

---

(١) الفوائد لابن القيم .

والبقية يأكلون ويشربون وينامون وهم في حل وأمان كلا . وإنما القضية أكبر من ذلك فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وإذا لم يقم به البعض عم الإثم الجميع فهل عُطيت المنكرات بالأمر والنهي وعولجت وقل الشر وغلبت كلمة الخير حتى نقول : إننا في أمان من واجب التبعة والمسؤولية أمام الله .

إن الواجب كبير والمسؤولية عظيمة والله يغضب ويغار إذا انتهكت حرماته، فالحذر من غضب الله والحذر من الشعور بالكمال الزائف الذي يزينه الشيطان .

أنه يوجد فئات من الشباب كانوا في يوم من الأيام أهل جد وعمل ومحافظة على الأوقات وأهل هم وبذل للإسلام . ثم دب إليهم داء السمر وكثرة الرحلات وإضاعة الأوقات في الأسفار والتنقلات وعاشوا أدواء الصحبة فأصبحت رغبة ولذة غابوا بها عن مقصود الاجتماع الأول وهو حمل هم الإسلام فضعف الإيمان وثقلت العبادة وتطاولت الألسن في القيل والقال والغيبة والنميمة واللمز والاستهزاء وربما فرط البعض في صلاة الفجر مع الجماعة بسبب السهر العابث وانطفأت شعلة الإيمان من القلب أو كادت فرجعوا خائبين همهم مجرد الاجتماع وسلواهم الرحلات دون عمل للإسلام ودون محاسبة لأنفسهم عن ضياع أوقاتهم وعن غفلة القلوب عن خوف الله ورجائه .

اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور ، ومن الغفلة بعد الذكر ومن الموت للقلوب بعد حياتها ، ومن الإهمال والعبث بعد الجد والنشاط .

ومن أعظم الغافلين من غفل وهو لا يشعر ومن كثرت سيئاته وقلت حسناته وهوآمن ضاحك لاهي . قال الحسن رحمه الله : (عجباً لمن هو بين الجنة والنار وهو غافل لاهي) وقيل : يجب أن يكون الهم في خمس : في طاعة لا تدري هل قبلها الله منك أم لا ؟ وفي معصية لا تدري هل غفرها الله لك أم لا ؟ وأن تعلم أن لله دارين الجنة والنار ولا تدري إلى أيتهما تصير ؟ وأنك علمت عن حياتك الماضية وماذا قدمت فيها ولا تعلم على أي شيء تكون حياتك الباقية ؟ والخامسة : لا تدري هل ربك راضٍ عنك أم ساخط عليك ؟ .

فانظر في أيامك – أيها المبارك – ماذا تودع فيها ؟ وبأي شيء تقضيها ؟ واقترب ممن يعينك على فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وعليك بزيارة من يذكرك بالله ، ويوقظ قلبك ويُبكيك ويبصرك بعيوبك ، ويحدوك للارتقاء بإيمانك ورفع همتك ويعينك على البذل والتضحية ، ويدلك على العلم النافع الذي يزيدك خشية لله . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

وعليك بالتطبيق العملي لكل سنة تسمعها ، وعليك بالامتثال لأوامر الله وتعظيمها وتوقيرها في نفسك ، والإكثار من ذكر الله والاستغفار فإنها دواء مباشر مجرب لحياة القلب وصرف هموم الدنيا ، وتفريج كرباتها وتنفيس ضوائقها إذا واطأ القلب اللسان ، وذكر العبد ربه مستحضراً عظمته متدبراً لمعنى ما يقول

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٢٨ .

راجياً الثواب العظيم المترتب على الذكر . قال تعالى : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

٦- المبادرة إلى فعل الحسنة : وعدم التأخر عنها لتحصل المسابقة والمسارعة إلى فعل الخيرات فإن مرض العبد أو سافر استمر لـه أجرها . وإن كان صحيحاً مقيماً قادته تلك الحسنة إلى غيرها وقوته وحركت فيه الهمة لفعل غيرها وانشرح الصدر للمزيد من الطاعات وتطلبها في كل لحظة وفرصة . وإن مات العبد وهو على تلك الحال عامراً أوقاته بالقربات لقي الله بها ، ومن عاش على شيء مات عليه

والإتيان بالحسنة بعد الحسنة علامة القبول إن شاء الله . عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : (صليت وراء النبي ﷺ العصر بالمدينة فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال : ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته)[2].

والحذر من الكسل والفتور وطاعة النفس وكثرة الاسترخاء ، لأن الكسل إذا صاحب الإنسان قاده إلى الترك واستثقال العبادة والعمل في سبيل الله ، والضعف يأتي بالتدرج فتجره نفسه وهواه إلى الزهادة في الأجر ، ويصاحبه التسويف والنظر إلى من هو دونه حتى يصبح الأمر صعباً وهذا من الحرمان وقلة

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٣٥ .
(٢) رواه البخاري برقم (٨٠٤) .

التوفيق . فكم من باب من الخير حُرمناه بسبب الكسل وكم أضعنا من الأوقات وكم خسرنا من العلوم النافعة التي لم نعمر أوقاتنا بها وكم من صلاة فاتتنا وكم من خير فرطنا فيه فخسرنا ثوا.

فالكسل هو سبيل المنافقين ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ (١) وهو الطريق إلى النار وقد تعوذ الرسول ﷺ منه قال ﷺ : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل) (٢) وكما أنه مضعف للإيمان فهو كذلك مذهب للدنيا فالكسول لا ينجح في مشاريع دنياه . والأمة التي اعتاد أبناؤها هذه السجيّة هي أمة بطالة ، وهي أمة فاشلة منهوكة متكلة على غيرها تعيش على أفضال الآخرين ويتحكم فيها غيرها ، وهي أمة لا شخصية لها تعيش على موائد أعدائها .

فمن الناس من شابهت حياته حياة الأنعام – إلى حد ما – للأكل والشرب والشهوات فقط . أما إذا صح إيمان المسلم فإنه يستشعر المسؤولية في وقته وعطائه وإنتاجه وأثره وفكره ، فهو يحاسب نفسه بأي شيء ملأ أيامه ، والمسلم المتيقظ لمصالح دنياه وأخراه هو ذلك الرجل الجاد الحازم الطموح المهتم بمواعيده وعهوده والتزامته لنفسه وللآخرين ، لأنه يدرك أن العمر قصير وقصير جداً إذا أخذ منه وقت الطفولة والصبا والشيخوخة ووقت الأكل والنوم ، والوقت الماضي الذي ضيعناه بالأماني والغفلة فخسرناه دون استثمار ومنا من أضاع عمره

(١) سورة النساء ، آية : ١٤٢ .
(٢) رواه مسلم (١١٠٦) .

في سخط الله – اللهم غفراً – قال الله تعالى متوعداً الكفار : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (١). وقال عليه الصلاة والسلام : (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع وذكر منها . وعن عمره فيما أفناه ؟) (٢).

إن استثمار العمر وجني الفوائد منه لا يكون بالأماني وكثرة الكلام والاجتماعات والمؤانسة الودية وما ترتاح إليه النفس . وإنما هو بالعمل الجاد الدؤوب ، وأحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل .

ثم إن العمر والقوة والنشاط والإقبال على الخيرات لا تعاد هذه الأشياء للإنسان مرتين بل هي فرصة واحدة وعمر واحد واختبار واحد ، والنفس التي تبذل وتجود هي نفس واحدة للإنسان لا تتكرر ولا تعاد فإلى متى الأماني والتسويف، أما لنا في الموت واعظ ؟! .

قال ابن القيم رحمه الله في الميمة :

فقدم فدتك النفس نفسك إنها * هي الثمن المبذول حين تسلّمُ
فما ظفرت بالوصل نفس مهينة * ولا فاز عبد بالبطالة ينعمُ
فبالله ما عذر امرىء هو مؤمن * بهذا ولا يسعى له ويقدم
ولكنما التوفيق بالله إنه * يخص به من شاء فضلاً وينعم

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .
(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٤١) .

٧- الحذر من السيئة : ولو كانت ذنباً واحداً فإنها تنقص الإيمان وتمرض القلب ، وتفتح للشيطان المداخل ، وتوهن العزيمة ، وتجلب الغفلة وتُحيي في القلب داعي الهوى ، وتحرم الرزق ، وتذهب ببهاء الوجه ، وهي قبل ذلك كله معصية للرحمن وطاعة للشيطان ، وسبب لدخول المعاصي وتتابعها بعد الذنب الأول ، لأن السيئات يأخذ بعضها برقاب بعض كما أن الحسنات تجر إلى مثيلاتها .

والذنب يخون صاحبه أحوج ما يكون فهو علامة الخذلان وباب الشيطان إلى قلب العبد . قال تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾[١].

والذنوب شؤم على العباد والبلاد فتأمل مصارع الأمم القوية المتمكنة كيف أودت بها ذنوبها ، وانهارت قواها وصارت أثراً بعد عين بسبب ذنوبها . وهذه سنة الله في خلقه . قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٢].

وانظر إلى فعل الذنب الواحد في قلب العبد فكيف الحال إذا تراكمت الذنوب ؟ وسهل اقترافها ، وتعارف الناس عليها ، ثم أصبحت الذنوب معروفاً واستحكمت الغفلة في القلوب ، ونُسي وعيد الله وغضبه وأليم عقابه . قال

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٨ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية : ٤٠ .

الرسول ﷺ : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهـو الـران) (١) الـذي ذكره الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢).

قال ابن القيم : (فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي مـن دخلـه كـان مـن الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخـاوف مـن كـل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقـه أمانـاً ومـن عـصاه انقلبـت مآمنـه مخاوفاً فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طـائر إن حركـت الـريح البـاب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب ، فمن خاف الله أمّنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء) (٣).

٨- عبادة السر : بين العبد وربه ، فإذا أخفاها عن الناس وتوجه إلى ربه بهـا محضراً قلبه فإنها تزيد الإيمان ، وتحيي القلب ، وتحصل بهـا اللـذة والحـلاوة ، وإذا داوم عليها وصبّر نفسه بحيث يستوطنها لتكون لها وطنـاً يجاهـد نفسه في البدايـة عليها لأنه سيجد من النفس استثقالها ، لكن بالعزيمة والصبر واستحضار الثواب والسعي الجاد الذي لا يتنازل عنها سيجد راحة قلبه والسكينة والطمأنينة والعيش الرضي بتلك العبادة قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤)، وقال

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح برقم (٣٢٥٧) .

(٢) سورة المطففين ، آ- : ١٤ . أحمد والترمذي ج ٢ ص ٧٨ (صحيح الجامع) .

(٣) الجواب الكافي ص ١١٥ ، وقلب في صفحات هذا الكتاب تجد العجب العجاب من آثار الذنوب والمعاصي .

(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٦٩ .

سبحانه : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ (١). وليست العبادة خاصة بالصلاة بل المقصود كل قربة يتقرب بها العبد إلى ربه .

وكان السلف رحمهم الله يستحبون أن يكون للواحد خبيئة بينه وبين الله لا يعلم بها أحد . وقالوا : (من علامة المخلص أن يحرص على ألا يطلع الخلق على مثاقيل الذر من عمله) ويستثنى من ذلك ما وجب إظهاره وفعله مع الناس كالحج وصلاة الجماعة وما يظهره المخلص ليكون قدوة لغيره وليحيي به السنة قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾(٢) .

وأخبار المخلصين المستسرين لأعمالهم كثيرة أولئك الأخيار الذين اكتفوا باطلاع الله عليهم دون الناس فستروا أعمالهم عن رؤية الخلق .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم) ووصى الإمام أحمد ابنه قائلاً : (يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير) وقال يحيى بن كثير : (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وسُئل حمدون القصار ، ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : (لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق) . وقال الحسن البصري : (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٦٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٧٤ .

وكان ناس من أهل المدينة لا يدرون من أين كان معاشهم فلما مات علي بن الحسين (زين العابدين) فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل . وقد وجدوا بظهره أثر (الجرب) مما كان ينقل بالليل إلى منازل الأرامل .

وكان عبد الله بن المبارك يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله ، وقال عنه الإمام أحمد : ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له .

وقال محمد بن واسع : (إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به) . وقال الشافعي : (وددت أن الخلق يتعلمون مني ولا ينسب إليَّ منه شيء) . وقال أيوب السختياني : (والله ما صدق عبد إلا سره أن لا يُشعر بمكانه) والله المستعان فكيف اليوم بمن لا يسر إلا إذا علم الناس بعلمه وعمله وصدقته وأثني عليه ! .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله) [١].

وهكذا فإن المخلصين الذين أخفوا لله أعمالهم زينهم الله بها وظهر أثر تلك الأعمال على وجوههم الصادقة ، وأطلع اللهُ الناس على أعمالهم فعرفوهم وأصلح الله حالهم قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [٢] ،

---

(١) هذه الآثار من كتاب معالم في السلوك وتزكية النفوس لعبد العزيز العبد اللطيف .

(٢) سورة المجادلة ، آية : ٢٢ .

فكفاهم الله مؤنة الناس لأن الله مع أوليائه يحفظهم وينصرهم ويزكي قلوبهم وإذا انقلبوا إليه رضي عنهم ورحمهم وقربهم في دار كرامته .

وقال ابن القيم رحمه الله : (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت) (١).

٩- تقوية جانب الخوف من الله ، فإن الخوف من الله تعالى يحيى القلوب ويدعو إلى الندب على النفس وقمعها ويزهد العبد في عمله ويكسر صولة النفس في الإعجاب . قال الرسول ﷺ : (إن لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية) (٢) وقال ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُعدات تجأرون إلى الله تعالى) (٣).

قال أبو حفص : (الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله إذا خفته هربت إليه) .

وقال إبراهيم بن سفيان : (إذا سكن خوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدنيا عنه ، والخوف ليس مقصوداً لذاته بل مقصود لغيره ، وأهل الجنة يزول عنهم الخوف لقوله تعالى : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٤).

---

(١) الفوائد ص ١٤٩ .
(٢) رواه البخاري (٦٣٢٩) ومسلم (٢٧٠٦) .
(٣) رواه أحمد والترمذي برقم (٢٢٣٤) وقال : حسن غريب .
(٤) سورة يونس ، آية : ٦٢ .

والخوف المحمود هو ما حال بين الإنسان وبين محارم الله . قال شيخ الإسلام : (الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله) ، والخوف من الله علامة لصحة الإيمان ، وتر حله من القلب علامة لضعف الإيمان . والقلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران)[١] .

والواجب المساواة بين الخوف والرجاء بحيث لا يتغلب أحدهما على الآخر، فإن غلب الخوف قنط من رحمة الله ، وإن غلب الرجاء أمن من مكر الله ، وقيل في حالة الصحة يغلّب جانب الخوف ، وفي حال المرض يُغلّب جانب الرجاء ، ويرجح الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله أنه : إذا نظر إلى عمله غلّب جانب الخوف ، وإذا نظر إلى رحمة الله غلب جانب الرجاء) ، قال طاووس بن كيسان : (قد طيّر ذكر جهنم نوم العابدين)[٢].

الله المستعان وهل ذكر جهنم يفزعنا ويطرد النوم عنا . إن الناظر في حال الأغلب منا يرى أننا نعيش عيشة الآمن المطمئن المرتاح الذي اكتفى بما يزينه عند الناس ، واكتفى بتقييم الناس له على أنه من المستقيمين ولم ينظر في حال قلبه ومحبة الله وخوفه ورجائه .

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (منزلة الخوف) .
(٢) صفة الصفوة .

١٠ – غض البصر : من أهم الأسباب التي تحفظ القلب بإذن الله عن التعلق بصور النساء والمردان ، فيسلم من أمراض الشهوات ويظل صحيح الإيمان يتذوق حلاوة الطاعات لأن قلبه متعلق بربه . وهذا يوسف عليه السلام لما كف نفسه عن السوء وجوارحه عن المعصية حماه الله وصرف عنه السوء والفحشاء ، قال تعالى : ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وأما من سمح لبصره وأطاع نفسه بإرخاء العنان لها هنا وهناك مرة إثر مرة فإن النفس تريد شهوة النظر فالعين تتلذذ ، والقلب يولع بالمناظر الحسنة . ولكنه الشر المستطير والآفة الخطيرة حيث يُسبى القلب ويتعلق ويتألم ويقع الحب والغرام والوله والعشق والهيام ، ثم لا تسل عن حال صاحبه مع العبادة والقرآن والخشوع وبهاء الوجه وصفاء القلب .

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً * لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذه الآفة ليست خاصة بالفسقة والعصاة بل قد تكون داء مـن يتعامل في أسواق النساء ، أو من يتعامل مع المردان في التدريس ، فالحذر الحذر .. وقد لا يشعر صاحب هذه الآفة ببلائه فيستمر عليها ويُشبع نظره بها ترتاح إليه نفسه ، ويبرر بأن هذا طبيعة عمله ، أو أن النظر المجرد لا يؤثر فيه ، وأنه قد تعوّد عليه .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٢٤ .

والجواب عن هذا هو قول الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه : (يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة) [١]. ويقال لمن كانت هذه حالـه : إن قلبك يفسد ، وإيمانك ينقص ، وعبادتك قد فقـدت روحهـا وأنـت لا تـشعر ، ولا بد أن تحجب تلك السيئة حسنات وخيرات ، وأول آثارهـا ومـصائبها أنـك لم تشعر بالذنب ، وهذه مصيبة أخرى غير ذنب النظر المحرم .

قال الشيخ محمد بن عثيمـين رحمـه الله : الـصواب أن مـس الأمـرد كمـس الأنثى سواء ، حتى قال بعض العلماء : إن النظر إلى الأمرد حرام كـالنظر إلى المـرأة مطلقاً ، فيجب عليه غض البصر . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : لا تجوز الخلـوة بالأمرد ولو بقصد التعليم لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم [٢].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم : (والتلذذ بلمسه حرام بإجماع المـسلمين وكذا النظر إليه بشهوة) [٣] .

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٧٠١) من حديث شريك وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك (تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٨٦) .

(٢) الشرح الممتع ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) حاشية الروض المربع ج ١ باب نواقض الوضوء .

١١ - الدعاء : سلاح المؤمن المكين وحصنه الحصين وملاذ الحيارى والمكروبين ، فإليه يفزعون وبه يحتمون ، وهو عبادة عظيمة من أعظم العبادات لأن العبد يتوجه إلى ربه بـه قـال تعـالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1]. فالداعي بصدق ينقطع إلى ربه ويعرض عن المخلوقين ، ولا يلتفت بقلبه إليهم لأنهم لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . قال رسول الله ﷺ : (الدعاء هو العبادة)[2].

وقال عمر رضي الله عنه : (إني لا أحمل هم الإجابة ، ولكن أحمل هم الدعاء فإن ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه) ، فإذا تجرد العبد للدعاء صادقاً عائذاً بربه ومستجيراً به فإن هذا علامة صحة الإيمان وحياة القلب ، والعبد لا يخيب ولا يفلس بعد دعائه إذا حقق شروط الدعاء وانتفت الموانع فالإجابة مضمونة عند الله، قـال تعـالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[3].

قال ابن القيم رحمه الله : (وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم . وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب ، وذلاً له

---

(١) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

(٢) رواه أحمد والترمذي برقم (٢٨٩٥) صحيح .

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٨٦ .

وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة ، وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله ، وبـدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثَنى بالصلاة على محمد ﷺ ثـم قـدم بـين يـدي حاجتـه التوبة والاستغفار ثم دخل على الله وألح عليه بالمسألة وتملقه ودعاه رغبـة ورهبـة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرد أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعيـة التـي أخـبر النبـي ﷺ أنهـا مظنـة الإجابة وأنها متضمنة للاسم الأعظم)[1].

وأخيراً فإن كل طاعة تزيد الإيمان إذا صاحبها الإخلاص والصواب .

ومن وسائل التربيـة الإيمانيـة الجلـيس الـصالح ، وزيـارة المقـابر وتـسجيل الفائدة ، وقراءة الكتب النافعة التي تتكلم عن أعمال القلوب ، وأعلاها وأشرفهـا القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، وكتب أئمة السلف ككتاب مـدارج الـسالكين وإغاثة اللهفان والفوائد لابن القيم ، والتحفة العراقية لشيخ الإسلام ابـن تيميـة ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي وكتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم وغيرها .

وكذلك النظر المتدبر في سير الصحابة والتابعين والتابعين لهـم بإحـسان إلى يوم الدين ، وما هم عليه من الصدق والإخلاص في بذلهم وتضحيتهم في علمهـم ودعوتهم وجهادهم وحسن تعبدهم لله .

---

(١) الجواب الكافي ص : ٢٤ .

الخاتمة

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل الموفق من شاء إلى صراطه المستقيم .

وبعد هذه الجولة في قطوف الإيمان وثمراته العظيمة فإن العيش في تلك الرحاب يحيي القلب ، ويسمو بالروح لتعيش عيشة أخرى غير عيشة بقية الناس الذين يتعاملون مع الماديات والأسباب فقط من متاع هذه الدنيا الرخيص الفاني مما تشتهيه النفس وتسعى إليه ، ذلك أن سعادة أهل الإيمان بإيمانهم وإقبالهم على ربهم والتلذذ بذكره وحلاوة مناجاته والعمل فيما يرضيه والجهاد في سبيله ، وقد استدبروا عرض هذه الدنيا الزائل وراءهم ظهرياً فلم يرفعوا بها رأساً ولم يلتفتوا إليها ، لأنهم قد أدركوا جيداً حقيقة هذه الدنيا دار البلايا والرزايا والآفات والفتن والزوال والهوان ، فاستصغروا شأنها واحتقروا سعتها وأموالها وأملاكها ولم يقلقهم ما فاتهم منها لأنهم جعلو في رجائهم لربهم عوضاً عن كل فائت ، ولأن الآخرة عظمت في نفوسهم ، واستولت على اهتماماتهم فجعلوا السعي والهم لها ، فركضوا إليها مشمرين جادين وباذلين كل ما يملكون وما يستطيعون ، يريدون الوصول إلى الغنيمة والرضوان في دار القرار ، مغتنمين ساعات العمر القصار ، لتحصيل الكنوز التي لا ينتهي نعيمها أبد الآباد .

ومن هنا اختلف الحياتان بين من يقبل على الدنيا يريدها ويرجوها وبين من يستدبرها يريد وجه الله والآخرة . فتغيرت الوسائل والاهتمامات تبعاً لتغير الغايات والأهداف .

إن من صح إيمانه يرضى ويسعد بطاعة الله وبرؤية الطائعين الساعين في مرضاة ربهم ، ويقلق ويحزن إذا رأى شيوع الفساد وإقبال الفسقة على منكراتهم فيسعى جاهداً لإنكار الشرور والموبقات المهلكات التي لا تنتشر إلا بسبب غفلة أهل الحق وتهاونهم .

فيا صاحب الإيمان إذا لم تجد في قلبك الغيرة والحُرقة للحرمات التي تنتهك، والمحرمات التي تستباح ، وأهل المعاصي وراء منكراتهم يلهثون ، فإذا لم تقلق لذلك فراجع إيمانك ، فإنه الخلل الكامن والتبلد نحو استشعار المسؤولية والتبعة وعظيم الأمانة ، قال رسول الله ﷺ : (إن الناس إذا راوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه) [1].

إننا في دار الجهاد والمصاولة مع النفس الأمارة بالسوء المريدة للشهوات المؤثرة للراحة والدعة ، إن من يريد أن يحفظ قيمته بين الناس زاعماً أنه لا يريد ان يواجه أحداً بشيء يكرهه ، ولا يتعرض لمنكر بالإنكار ويتحاشى أن يُرمى بالسب والاستهزاء ، فهو يسعى إلى أن يبقى مكرماً موقراً يفسح لـه في المجالس ، إن من عنده هذا الفهم والتصور فهوبحاجة إلى إعادة النظر في إيمانه لأن الإيمان الصحيح يُلح على صاحبه بإيثار مرضاة الله على كل أحد فلا يتزين عند الناس ويداهنهم على حساب دينه بل لابد للصادق في إيمانه أن يناله من بعض الناس مسبة أو شماتة

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

او تهمة وإن كان هو لايطلب ذلك ابتداءً ولكن هذا نتيجة حتمية لمن واجه الناس بالحق ، لأن أكثر الناس لا يرتضي الحق إذا عارض هوى في نفسه.

إن ظاهرة ضعف الإيمان داء خطير على كافة المستويات فتظهر آثاره حتى على طلبة العلم والدعاة في ضعف التميز والتعبد وبروز الحسد والدعة والهوان والالتفات عن هموم الدعوة وجراح المسلمين إلى الانشغال بمطامع الحياة والشهوات والكماليات وتزيين ذلك بحيث يغلب ويصير هو الشغل الشاغل .

فما أشد الضرورة اليوم بالأمة – بسبب الغفلة والجهل – إلى التعليم والتوجيه للعامة والخاصة ، فلقد فتكت في أكثر الناس الشهوات ، وانتهاك المحرمات وزين لهم الشيطان أعمالهم فأنساهم آخرتهم ومآلهم وأشغلهم بدنياهم عن دينهم ، وبحب ما تشتهيه الأنفس عن حب الله ورسوله ، فلجوا في معاصيهم وعكفوا على ملاهيهم وضُيعت حقيقة الصلاة والمحافظة عليها وصار من السهل الإقدام على الكبائر والتفريط في الواجبات بطريقة متعارف عليها دون حرج أو تردد بسبب ضعف خوف الله وقلة الناصح .

ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها بالرجوع إلى الله وخوفه ورجائه وذلك بتجديد الإيمان وزرعه وسقيه ، ومعاهدته حتى ينبت ويورق ويثمر فتظهر آثاره على القلوب والوجوه وسائر الجوارح ، وتظهر حقيقة العبودية ويصفو المشرب من الكتاب والسنة فلا تكدره لوثات الشركيات والبدع والهوى والسيئات .

فبالقرآن الهدى والشفاء والنور والبيان والدواء لكل آفة وجرح داخلي في القلب ، أو خارجي مع الناس ، فهو غذاء الأرواح وشفاء الصدور وعمارة الدنيا والآخرة ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : (أسألك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري)(١) فهو الحياة والدليل الهادي إلى كل خير .

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة .أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

هذا وأسأل الله العلي العظيم ، الحي القيوم ، ذا الجلال والإكرام ، بديع السموات والأرض ، الرحيم الودود اللطيف الشكور أن يعمنا برحمته ووالدينا وذرياتنا وجميع المسلمين ، وأن يصلح أحوال المسلمين ، وأن يحيي الإيمان في قلوبنا وينور بصائرنا ، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يتوفانا على الإيمان وهو راض عنا ، وأن يهب لنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً وتعليماً خالصاً وتوبة نصوحاً وثواباً جارياً في الحياة وبعد الممات ، وان يحسن لنا الخاتمة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

---

(١) رواه الإمام أحمد برقم (٣٧٤٢) .

الفهـــرس

أخي القارئ الكريم : في هذا الكتاب . .

كشف ظاهرة ضعف الإيمان . حقاً لقد قست القلوب ، وجفت العيون ، وضعف الخوف من الله تعالى ، وهان التفريط في الواجبات .

فلم يكن الهم للآخرة ، بل شغلب ويلات هذه الحياة القلوب وملأتها . فزاحم همُّ الدنيا همَّ الآخرة .

وفي هذا الكتاب نتائج وآثار ضعف العبادة . لقد باتت العبادات صورة وشكلاً على الجوارح دون الروح والمضمون ، فنصلي لكن بلا خشوع ، ونقرأ القرآن الكريم بلا تدبر وهكذا في كل عبادة . . .

وبين يديك ثمرات الإيمان ، وأثرها على النفوس والمجتمعات ، فإذا صح الإيمان زكت النفوس ، وصلحت الأحوال ، وانتصر المسلمون ، وعاشوا إخوة متحابين سعداء في الدنيا والآخرة .

ثم تجد العلاج بإذن الله ، كيف يزداد الإيمان . .

قيل للشيخ ابن باز « رحمه الله» ألا تستريح ألا تتعب ؟

فقال : لا . قيل له لماذا ؟ .

فقال : إذا عملت الروح لم تتعب الجوارح .

المؤلف